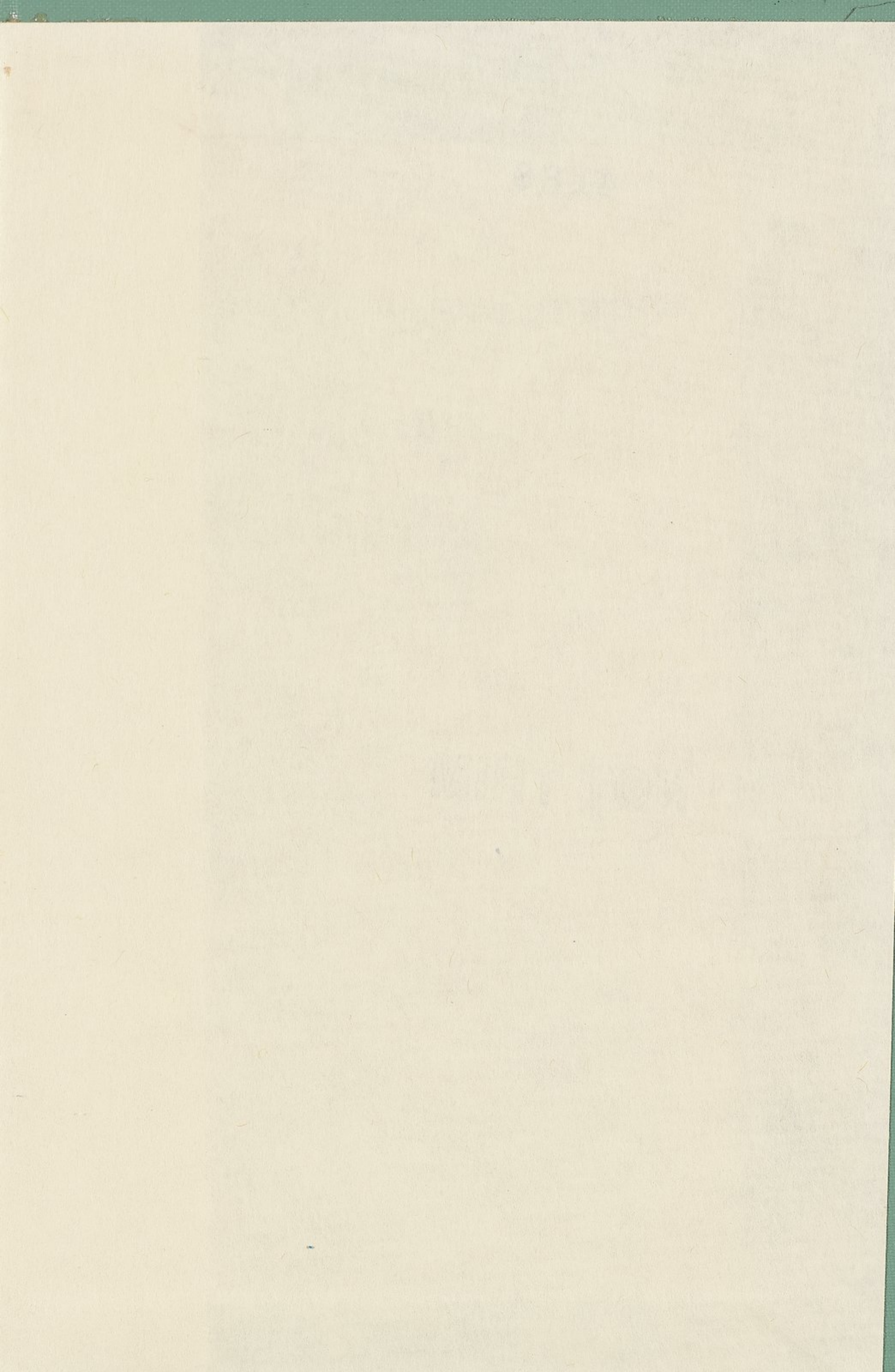
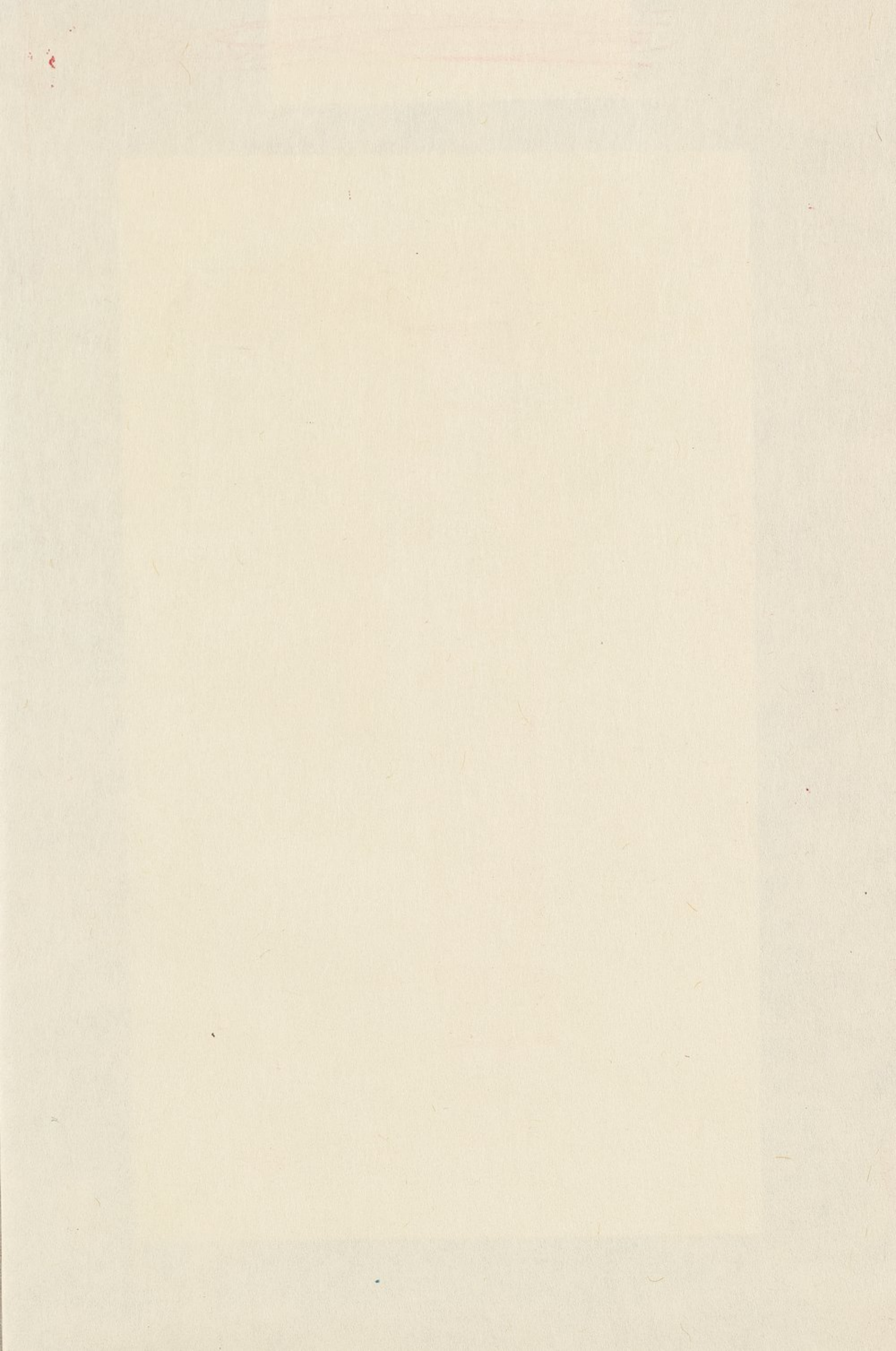





Princeton University Library
32101 075912244




دستويفسكى
ترجمة صوفى عبدالله
المساكين
اب اليوم
الثمن ١٠ قروش





المساكين

ترجمة صوفي عبد الله









مقدمة المعرّبة

قارئا ما قرأ الانسان في قصص المشرق والمغرب ، في القديم والحديث . وأيا ما كان رأيه في مراتب الفنون وفي مكان القصة من دولة الأدب الرفيع ، فان نتاج عبقرية « فدور دستويفسكي » من القَصص ، ومن القصص الطويل على وجه الخصوص ، سيبقى الى آخر الزمان ذخرا من أثمن ما تعتد به الآداب العالمية على اطلاقها

بيت الموتى ..

الجريمة والعقاب

الاخوة كرامازوف

قليل من كثير عرفه العالم لقلم ذلك الكاتب الروسي النابغة ، الذي سما بأدب القصة الى أفق يساوي عظمة شكسبير الخالقة في دنيا الشعر .

فاذا قيل دستويفسكي ، قيل فخر الانسانية وذخرها جمعاء ، ولا يأتي ذكر وطنه الروسيا الابعد ذلك النسب العام . ولكن الرجل عبقرية روسية بقدر ما فيه من عبقرية انسانية شاملة ، لأن عناصر تكوين أمته مكتملة فيه كل الاكتمال ، وفي شخوص رواياته صورة صادقة لذلك الشعب بتوفزه العصبي وتحفزه وعمق انفعالاته واجتماع النقائص في طبيعته الحية .

فيصدق في وصف كاتبنا انه أعظم كتاب القصة الطويلة في آداب العالم المعروفة غير منازع .. كما يصدق في وصفه أنه قمة شامخة بين أسمق القمم الشوامخ التي تنازعت التبريز والتفوق في وطنه وفي زمنه .

وناهيك ببلد اجتمع له من أبنائه في جيل واحد أمثال دستويفسكي وتولستوي وتورجنيف وتشيخوف وجوجول

وجوركى واوبلوموف ... وهى نخبة كريمة ، يكفى واحد منها لاعتزاز أمة بأسرها فى أمد طويل، فكيف وقد اجتمعت لامة واحدة، وفى جيل واحد ؟ ..

انه اذن ثوران البركان ، أو تحول محور الارض عن مكانه المكين فى آفاق الفضاء ، أو ما هولاحق بذلك من ظواهر الطبيعة التى ترجع أسبابها الى مجهولات عميقة محجبة بالغوامض والاسرار ، وتؤذن عواقبها بتغير حاسم فى معالم الحياة ...

فظهور هذه الشموس فى سماء الروسيا كان خارقة من تلك الخوارق ، ولا مراء ، فكأنهم جنى الخرافة الذى أطلقه الصياد من القمقم ، فلم تفلح فى رده اليه الرقى والتعاويذ .

أما القمقم فكان « الجهل » وأما القفل الذى كان يختم عليه أجيالا بعد أجيال فهو « الرجعية» . وأما الجني فهو « حرية الفكر والضمير » . وأما الصياد الذى فتح القمقم فى غير تدبر لما فى داخله ، فهو مؤسس الروسيا الحديثة ، «القيصر بطرس الاكبر»

فقد افتتن هذا القيصر بحضارة الغرب ، فذهب يدفع بلاده الى تقليده دفعا عنيفا . وكانت الروسيا الى عهده أمة مستعصمة ببداوتها . فبعث « بطرس » البعوث الى المانيا وفرنسا وانجلترا ، وحث الناس على اتخاذ السمت الاوروبى فى المأكل والملبس وآداب الاجتماع .. وأخذ الناس بالرطانة الفرنسية والاطلاع على آدابها الحسان . فكأن ذلك القيصر القديم هو الاصل الذى أخذ عنه «مصطفى كمال اتاتورك » فى هذا الزمان لولا ان الطفرة التى أراد بطرس قومه عليها كانت أكبر واعنف من تلك التى راض عليها اتاتورك ابناء بلده المحدثين ..

والناس – مذ كانوا – اعداء ما جهلوا ... فكل طفرة من شأنها أن تجد فيهم مقاومة حاضرة ، ولو كانت الى الخير

والرخاء .. فما ان مات بطرس حتى سعت عناصر الرجعية الى الاستيلاء على زمام الامور . .

ولكن هيهات .. ! فان النهر لا يتجه القهقرى من المصب الى المنبع أبدا ، يصدق ذلك فى طبائع الاجتماع وعلم تقويم البلدان على السواء . فلم تفلح تدابير الحاكمين من بعد بطرس فى رد النور عن الكهوف الرطبة المظلمة التى كانت تعيش فيها العقلية الروسية منذ قرون . فانتصر النور الجديد ، وبقى الجنى مطلق السراح ، والاقزام من حوله يقرأون التعاويذ لرده الى القمقم المكسور ..

فماظنك بعملاق كان حبيسا فى قمقم مظلم ، فاذا به يرى الدنيا لاول مرة ، ويرى حواسه تلتهم الاحساسات الجديدة طوفانا بعد طوفان .. ! ؟

انها النشوة الكبرى .. ! انه « جنون الحياة » و « حمى الاحساس » تسرى فى جوارح العملاق الطليق ، وفى أعصابه ، وقلبه ، وتلافيف دماغه الذى تملكه الدوار لكثرة ما يرد عليه من الصور والاحاسيس . . فكانت تلك النخبة الممتازة من « التعبير الفنى » الفريد ..

كان بوشكين ، وكان جوجول ، وكان تورجنيف ، وكان تشيخوف ، وكان تولستوى ، وكان دستويفسكى ..

انه ثوران البركان ، أو هو تحول محور الارض عن مكانه المرسوم فى آفاق الفضاء ، او مولد « مجرة » جديدة تهتز لمولدها نواميس التجاذب بين أجرام السماء ..

فالعبقرية هى غاية طاقة الخلق التى لا تتفتق الا فى الحين بعد الحين ، ينبوعا خالدا خارقا للمعرفة الثاقبة الاحساس

النافـذة الى صميم الوجود ، حيث تلهو المـلايين من البـشر بالقشور الاصداف على شاطئه الضحضاح ..

**

ذلكم هو قبيل دستويفسكى من نبلاء النوع الانسانى وأعلامه المبرزين .. فمن هو دســـتويفسكى ، ذلك النبيل بين النبلاء والعلم الشـامخ بين شوامخ الاعلام .. ؟

انه أصغر أبناء طبيب من اطباء الريف فظ الطبع ، خدن دن وتبع نساء . سام زوجته سوء العذاب حتى ماتت وابنها « فدور » فى سن السادسـة عشرة يطلب العلم فى بطرسبرج توطئة لتخرجه ضابطا فى جيش القيصر ..

بيد ان الخـدمة فى جيش القيصر لم تـكن هم ذلك الفتى المتوسـط الطول ، العـريض الصـدر ، الاشقر الشـعر ، الشاحب المحيا ، اللامع العينين ، وانما جل همه فى قراءة عيون الادب الغربى ، ولا سيما مؤلفات شكسبير ، و « انوريه دى بلزاك » القاص الفرنسى الضحل الـذى يعتبره فدور أسـتاذه وامامه فى فن الرواية ..

واذا كان المعهود فى ضباط الجيـش القيصرى ان يحبـوا الرقص والشراب وصحبة النساء .. فما كان الضـابط فدور على شاكلتهم فى شىء من ذلك : فهو كتوم ، منطو على نفسه ، نزر الـكلام ، تشغله القـراءة وترجمة آثار بلزاك ــ ولا سيما « ايجينى جرانديه » عن ارتياد المراقص والمواخير . فما وافت سـنة ١٨٤٤ ، وقد بلغ الثالثة والعشرين ، حتى فصل من خدمة جلالة القيصر لانه ابى النقـلة الى الاقاليم ، مؤثرا البقـاء فى العاصمة بين الكتب والاوراق فى سكن متواضع لايكاد يبرحه ليلا ولا نهارا ..

وقد اختلف الناس فى نسبة العبقرية الى مس من جن يسكنون وادى عبقر . ولكن الذى لامحل للخلاف فيه ان العبقرية شيء خارق . حرى أن يلازمه اختلاف عن النمط السوى او المألوف فى عناصر التكوين . وبين الاختلاف والاختلال فرق ضئيل اذا كان ثمة فرق على الاطلاق ..

وقد تركت العبقرية طابعها ذاك فى تكوين « فدور دستويفسكى » فتركته فريسة سهلة لنوبات من الصرع شقى بها منذ يفاعته الى ختام حياته فى سن الستين ..

* *

فصل دستويفسكى من الجيش فى الثالثة والعشرين من عمره ، فعكف على الكتابة والاطلاع . فلما كان فى الرابعة والعشرين أتم روايته البكر ، التى قدر لها ان ترفعه الى قمة الشهرة والمجد الادبى دفعة واحدة ، حتى أصابه من ذلك دوار شديد ..

وهذه الرواية هى التى نضعها اليوم بين يدى قراء الشرق العربى :

المساكين ..

فهى أول ما جادت به عبقرية دستويفسكى ، فنوهت به بعد خمول ، وأذاعت ذكره وأعلت قدره عند جمع النقاد وجمهرة الادباء والقراء ..

وقد بلغ من تأثيرها ان الناشر ، وهو رجل كاتب واديب متمكن من الصناعة الادبية .. فاضت دموعه على وجهه مدرارا وهو يقرأ تلك الصفحات النابضة بالاحساس العاطفى العميق .

وانه لينذر جدا ــ فى جميع ما حفلت به الآداب الانسانية ــ أن يجد المرء نظيرا لقصة « المساكين » فهى على بساطتها

مقدمة

من الصدق بحيث تلمس القلب فيتحرك لكل كلمة فيها ، ويعانى ما عاناه ابطالها « المساكين » .من عنت الدهر وقسوة النـاس وجبروت القضاء ..

انها قصة كل مسكين فى هذه الدنيا أبت عليـه الايام حق الانسان المقدس فى الحب ، وفى الرحمة ، وفى الحـد الادنى من العيش الكريم الذى يصون ماء الوجه ودماء القلب ..

انها قصة الحرمان ، بكل ماللحرمان من سطوة على مصائر بنى الانسان ..

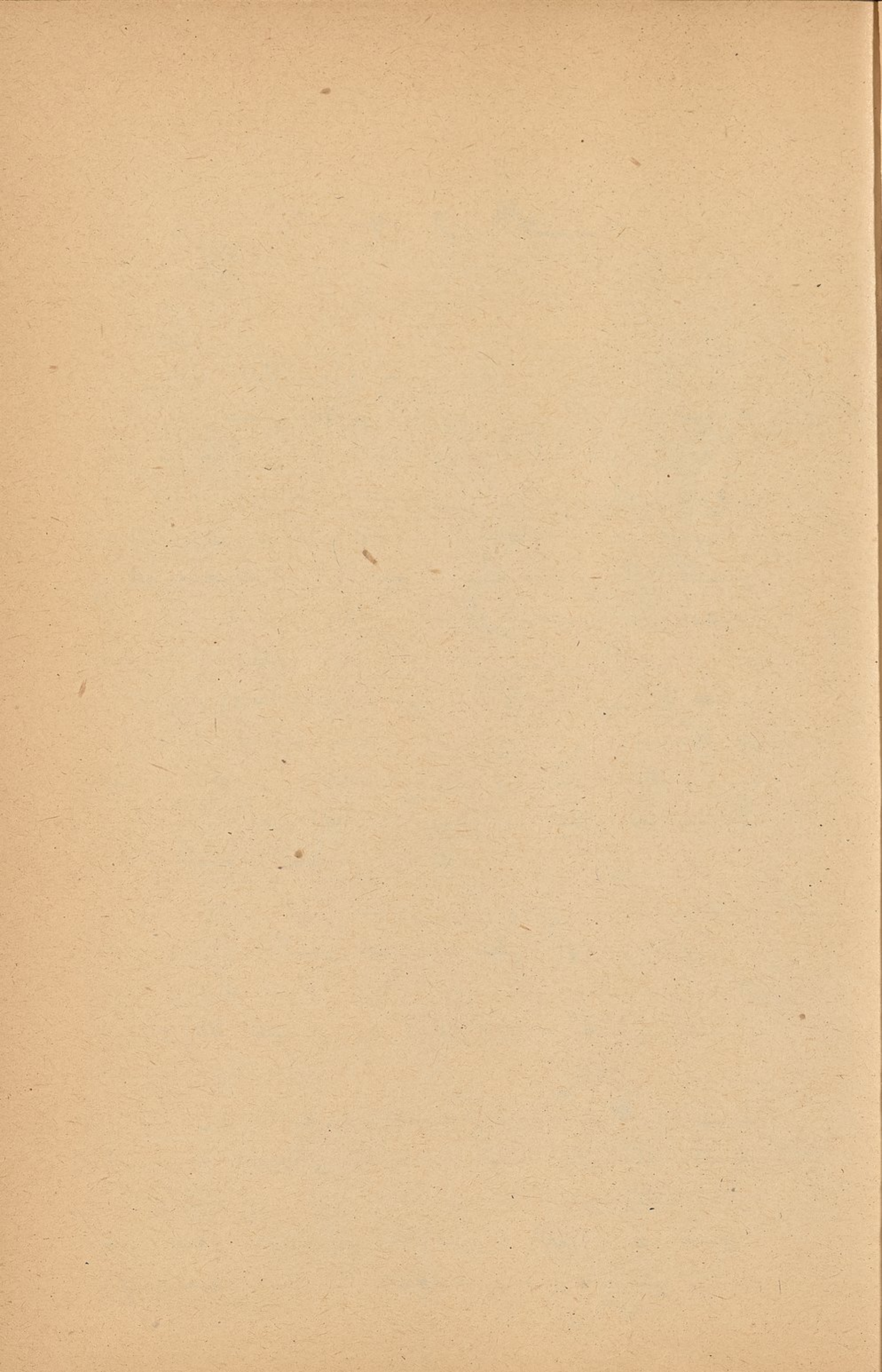
فاذا خانك الدمع ايها القارىء - وسيخونك حتما - وانت تتلوها مستغرقا فى سـطورها المتأججة بالشعور الجياش ، فلا تخجل من دموعك ، وأطلقها .. لانها ليست دموع الضـعف التى تهدر الرجولة والانسانية ، وانما هى دموع الاحسـاس الكريم ، والاسى الرحيم ، لنفوس حرمت كل جميل ، وهى أهل لكل جميل ، لانها فطرت من النور ، وصـبت الى النـور ، فقضى عليها أن تتخبط فى غياهب الديجور ..

انها أحياء حرمت حق الحياة .. فما أحراها بدمعك أيهـا القارىء الكريم .. وما احراها بقلم دستويفسكى المبدع وفنه العظيم ..

مصر الجديدة

يناير سنة ١٩٥٢

صوفى عبد الله



هـو و هـى

٨ ابريل

عزيزتى المفداة بربارة ألكسايفنا .:. !

ما كان أسعدنى بالامس يا أختاه .. ! لقد كادت السعادة تقطر من جوانحى ، لفرط ما فاضت فيها عذبة رقراقة .. فقد فعلتها أيتها العنيدة الشموس ، ونزلت ـ لاول مرة فى حياتك ـ على ما طالما توجهت اليك بطلبه ، راجيا ملتمسا .

لقد صحوت أمس فى نحو الثامنة مساء (فأنت تعلمين يا أختاه مبلغ تعلقى بالنوم ساعة أو ساعتين حين أعود من عملى) ، فأوقدت شمعتى وأعددت أوراقى وأقلامى . ثم رفعت رأسى مصادفة ، فاذاقلبى يدق فى صدرى دقا عنيفا متلاحقا .. لقد فهمت اذن ماكان يجنه قلبى ويتمناه فؤادى المعنى .. فهذى أنت قد أزحت جانبا من ستار نافذتك ، وثبته فى أصيص البلسم القائم فى وسطها .. كما أوحيت اليك ذات مرة فى تلميح لم يغب عن فطنتك ..

بل خيل الى اننى رأيت من وراء زجاج النافذة وجهك الفاتن ، وكأنك وأنت فى حجرتك تنظرين الى ، وتفكرين فى . وما كان أشد حسرتى ـ يا ملاكى ـ لاننى لم أك مستطيعا أن أتبين فى تلك العتمة ، وعلى ذلك المدى ، معارف محياك الحبيب الى قلبى ..

لقد كان لى أنا أيضا بصر حديد يوما ما يا أختاه . ألا بئست الشيخوخة ياصديقتى الحسناء.. فهأنذا الآن مثلا وقد بدا لى كل شىء مثنى مثنى ، فما أكتب فى العشى ساعة وجيزة حتى تهتاج أعصاب بصرى فأصحو فى الغداة محمر العينين ، وللدمع منهما مسيل لا ينقطع وهميان لا يرقأ ، حتى ليركبنى

الخزى من مرآى حين تقع على أنظار الناس ..

ولكننى رأيت ابتسامتك السماوية يا ملاكى .. بعين وجدانى .. رأيتها يا أختاه ، فأضاءت بها روحى القابعة فى الظلمات ، وسرى فى فؤادى ذلك الشعور الذى خالجه وجاش فيه يوم قبلتك يا « ڤارينكا » .. أتراك تذكرين ذلك اليوم يا ملاكى .. ؟

أتدرين أنه خيل الى انك كنت تهزين سبابتك الحلوة فى وجهى محذرة ، من وراء زجاج نافذتك أمس .. ؟ فهل هذا صحيح أيتها الحميقاء ؟ لا تكتميني شيئا من هذه التفصيلات فى خطابك يا عزيزتى ..

والآن ، أما ترين فكرة رفع جانب من الستار كشفا موفقا من كشوف الالهام .. ؟ فاذا جلست فى جوف الليل الى أوراقى ، أو رقدت يقظان فى فراشى ، وسعنى فى كل حال أن أعرف انك تفكرين فى ، وانك مانسيت صديقك الوامق ، وأنك بخير صحة وفى أحسن حال .. حتى اذا أسدلت الستار تمام الاسدال ، فهمت عنك أنك تقولين لى بصوتك الباغم :

ـ عم مساء يا صديقى .. وطاب نومك ، فقد آن أوان النوم ..

ثم ترفعين الستار مرة اخرى ، فكأنك تقولين فى بشاشة :

ـ عم صباحا يا صديقى .. هل نعمت بنوم هنىء .. ؟ وكيف أصبحت اليوم .. ؟ فأنا بحمد الله بخير وعافية ..

أرأيت يا صديقتى كيف صار الكلام بيننا متصلا بغير حاجة الى التدوين والتحبير .. ؟ أما ترينني صاحب خيال وأخا حذق وزكانة حين ابتدعت هذا الفن من ادب الرسائل .. ؟

* *

لقد طاب رقادى ليلة امس ، وما كنت اتوقع ان يطيب ..
فان اول ليلة يقضيها المرء فى مسكن جديد خليقة ان تحفل
بالارق والقلق لغياب الالفة وتغير العادة .. ولكنى فتحت
عينى هذا الصباح ناشط الجسم متفتح النفس فكأننى باز
من الصقور حن للصيد والطراد فى أجمة حافلة بالغزلان ..
لقد كان صباحنا اليوم رائعا ياأختاه ، فما فتحت نافذتى حتى
دخلت أشعة الشمس الساطعة ، وتدفق فى أذنى تغريد الطير ،
وفغم معاطسى عبير الربيع الطيب النفحات العاطر الاردان ..
فكأن الطبيعة قد بعثت من موات ، فهى فرحة نشوى ، وكل
شىء فيها يشاركها فى أفراحها ويسهم فى حفل زينتها الفينان !

حتى انا يا عزيزتى ، قد أسهمت فى أفراح الربيع ، وسرت
فى جسدى الواهن روحه الشابة . وكان سهمى يا أختاه فى
أفراح الربيع اننى استسلمت للاحلام ، فكنت أنت ملء حلمى
بالحياة والشباب ، والربيع .. فتبديت لى فى احلامى طائرا
جميلا صغيرا من طيور السماء .. فما يعرف ابناء الشقاء من
أبناء الفناء خلقا أولى بغبطتهم بين خلق الرحمن ، من الطير
المغردة بين الافنان ، تحلق وتحط أين شاءت ، ولا يكلفها
المعاش معاشرة بنى الانسان ..

ولكن الاحلام على حلاوتها شىء اليم يا ڤارينكا .. فانها
تنتهى الى حسرات ، متى أفاق المرء على الواقع الدميم ..

دميم .. أجل .. ولا مهرب منه .. فدعينا من الاحلام
يا ڤارينكا وخبرينى كيف حالك ، وكيف حال « فيدورا »
معك .. أحسب عشرتها تطيب لك ، فهى هادئة طيبة القلب ،
وتحت مظهرها الجافى باطن لين المهاد من الرحمة والحنان ..

لقد حدثتك من قبل عن « تيريز » التى تقوم على خدمتنا

هنا ، وهى كصاحبتك « فيدورا » ممن فطرن على الطيبة والمرحمة . . وقد رفعت عن صدرى هم رسائلنا وكيف نتبادلها خلسة من أعين الناس وسوء مظنتهم .. فستتولى تيريز هذا الامر عن طيب خاطر ، فهى رضية الخلق ، على نقيض صاحبة البيت التى ترهقها بالعمل الشاق وتسىء معاملتها اساءة ليس عليها من مزيد ..

* *

ولاحدثك الآن عن مسكنى الجديد . وانه لعمرى لمسكن غريب ، غريب فى نظرى على الاقل .. فقد تعودت فيما سلف من مساكنى هدوء البال والصمت ، فلا تسمع فى البيت نأمة ، واذا طنت ذبابة فى هوائه كان طنينها حدثا يسترعى الآذان .. اما هذا البيت ، فهو جهنم التى لا يكف لزبانيتها ووقودها صخب وضجيج . .

فتخيلى يا عزيزتى دهليزا طويلا ، شديد العتمة ، شديد القذارة ، جداره الايمن ليس به شىء ، واما جداره الايسر فسطر من الابواب المتشابهة المتعاقبة على مدى متساوق كأبواب حجرات الفنادق .. وهذه هى أبواب الغرف المؤجرة للساكنين ، ومنها ما يكتريه مستأجران او ثلاثة مستأجرين

وأما النظام فأمر لا يجرى له ذكر فى خاطر احد من أهل هذا المكان .. فكأنه فلك نوح !

بيد أن النصفة تقتضينى أن أشهد للسكان بالظرف . . فمعظمهم من أهل الثقافة والعلم .. وان كان فيهم نفر من الضباط ، واولاء لا هم لهم الا المقامرة ان ليلا وان نهارا ، لا يجدون عنها منصرفا ..

اما صاحبة البيت فأعوذ برب الفلق من شر ما خلق .. !

انها عجوز قصيرة القامة خبيثة .. بينها وبين النظافة ترة ! ولا هم لها سحابة اليوم الا التنقل فى البيت فى زى حائل اللون وخف بال ، لتتعقب الخادم تيريز بقوارص الكلم .. !

وأما أنا، فمقامى فى المطبخ ! ليس فيه تماما ، بل فى حجرة صغيرة ملحقة به (ولا تنسى أن مطبخنا فى هذا البيت حسن النظافة طيب الرائحة مريح يتخلله النور والهواء) . واذا أردت التدقيق ، فاعلمى أن المطبخ متسع جدا ، له ثلاث نوافذ ، فأقيم فى وسطه حاجز أو ساتر جعل منه حجرتين ، فخرجت لى تلك الحجرة التى نعمت بسكناها ، وفيها تلك النافذة التى أرى نافذتك منها .

ولا تنسى أن هذا الموضع يتيح لى العزلة ، فلا تصل الى ضجة سائر السكان ، ولا يكاد أحد منهم يحس لى وجودا .

وقد جعلت فيها مائدة صغيرة للاكل والكتابة، وفراشا ، ومقعدين وصوانا صغيراً ، وعلقت على الجدار ايقونة ، فما ينقصنى فيها شىء على الاطلاق .

ولست أجحد أن من المساكن ما يفضل هذا السكن فضلا بينا، ولكن أوجه الراحة التى تلزمنى شخصيا بصفة خاصة تتوافر فى هذا « الركن » الهادىء توافرا لا مزيد عليه ، وأنا امرؤ يتوخى الراحة ولا يكترث للابهة والبذخ

وهل من راحة أروح لى من تقابل نافذتينا ، لا يفصلهما الا فناء دارك ؟ وانه لعمرى لفناء ضيق الرحاب ، أراك فيه غادية أو رائحة فكأننى لو مددت ذراعى حرى أن ألمس جدائل شعرك .. فيتبدد شقائى وتحبب الى الحياة ...

وثم مزية أخرى لا تنكر ، فهذا السكن رخيص ، يفيض لى من كرائه ما أشرب به الشاى ، وماكنت أذوقه الا لماما . ولاسيما

أن أهل هـذا البيت قوم ذوويسار ، فاحتساء الشاى عندهم فريضة ، فلا يخلق بى أن أشذعنهم . وأما ما بقى من راتبى الصغير فمن لطف الله أن يسدخلاتى المتواضعة ، كخصف نعل يبلى ، أو تبديل ثوب يخلق أومعطف يرث .

وما أشكو زمانى ، فحاشاىأن أشكو وقـد زاد مرتبى فى السنوات الاخيرة حتى بات يحسدنى عليه الكثيرون من نظرائى . ولا يخلو عام من مكافأة عارضةأو هبة على وجه الاستثناء .

وقد اشتريت لك اليوم اصيصين من البلسم وأصيصا من زهرة الراعى (الجيرانيوم) وجدتهازهيدة الثمن . ووجدت عنده كذلك اصصا من الفاغية حسانا،فاذا رغبت فى شىء منها فاذكرى ذلك فى جوابك ، فليس الدكانبعيدا ، وأثمانه ليس فيها شطط

واياك أن ترجعى سكناى فىهذا المكان المتواضع الى غيرسببها الحق . فما بى والله ضـائقةولاخصاصة،فانى ادخر لبارحات الايام شيئا من المال يفيض عنحاجتى . وانما هو التماس الراحة ، والسعى الى قربك .

لقد أطلت عليك ... ووقتعملى قد أزف ، فاستودعكالله، واطبع على أناملك الرخصة قبلةاعزاز من

وليك الوامق

« مقار ديوفشكين »

ملحظ : استحلفك أن تردىعلى فورا . وأرجو أن يعجبك رطل الحلوى الذى أبعث بهاليكمع هذا الخطاب . والى اللقـاء أيتها الاخت .

٨ ابريل

عزيزى السيد مقار

أتعلم أن الامر قد ينتهى بينناالى الخصام ؟ فانى وايم اللهلأجد

فى نفسى ألما لما تقـدمه الى من الهدايا والالطاف ، فليس غائبا عنى ما تتجشمه فى هذا السبيل من التضحية ، وما تحرم نفسك من الضرورات من أجلى . وكم من مرة كررت على أسماعك اننى لست بحاجة الى شىء على الاطلاق ، وأن ظروفى لا تسمح لى أن أبادلك ألطافك الحسان بألطاف من مثلها أو تقاربها . ثم ماذا عسيت أن أفعل بكل تلك الاصص المزهـرة ؟ واذا تغاضيت عن البلسم ، فماذا ترای أفعل بزهرة الراعى ؟ أهذا عقابى لأنى أعجبت باحداها أمامك عرضا ، وبغير اكتراث ؟.. وما أظن الا أنها كلفتك كثيرا .. فهى جميـلة حقا .. لقد وضـعتها على كل حال فى منتصف النافذة ، فى مكان الشرف ، وجعلت أمـام النافذة رفا ثانيا يتسع لمزيد من اصص الازهار التى سأشتريها يوما ما ... حين يواتينى مثيل ما تنعم به أنت من الثراء ! وقد سر « فيدورا » ما أضفته هذه الازهار من الرواء على حجرتنا، حتى باتت وكأنها جنة النعيم .

ولكن لماذا بعثت كل تلك الحلوى ؟ الحق اننى تشممت شيئا غريبا من ثنايا سطورك الاولى ، فقد أكثرت الحديث عن الربيع والزهر والشباب وشذى العطر وغناء العصافير ، حتى توقعت أن تقع عينى فى السطور التالية على قصيدة عصماء ! أفهل غدوت الآن من زمرة الشعراء ؟ لست أراك ينقصك من عدتهم شىء : فلديك الاحلام الوردية، والعواطف الرقيقة المتدفقة ، ولا أحسب الوزن والقافية يعييانك !

أما الستار ياصاحبى ، فمـا فكرت أمس فى ازاحة جانب منه كما وهمت .. وانما هو قد أزيح عفوا ، ويغلب على ظنى ان ذلك قد حدث وأنا أرتب الاصص فوق رف النافذة .. لهذا لزم التنويه! وأما ما حاولت من اقناعى بيسر حالك ، فأمر لا يقنع أحدا ، ولا

سيما فتاة مثلى تعرف مداخلك ومخارجك ، وترى مبلغ ما تتحامل به على نفسك فى سبيلها ٠٠ حتى اضطررت الى ذلك السكن الذى يقل عن مستواك كثيرا ، فقد خبرتنى « فيدورا » ان مسكنك السابق كان خيرا من هذا السكن بكثير ٠

ولكن خبرنى : هل أنفقت جميع عمرك متنقلا بين البيوت المفروشة ، تعيش وحيدا فريدا بين غرباء ، لا أنيس لك ولا صديق ، وليس من صدر حنون تطمئن اليه وتسمع منه لفظا رقيقا يجلو عن قلبك الصدأ ؟ ٠٠

تالله كم أرثى لك ياصديقى! ثم لماذا تشتغل فى الليل على ضوء الشموع ، مادام بصرك يتأذى من نورها ؟ وما أحسب رؤساءك الا مقدرين لك سابقة فضلك وحسن بلائك فى عملك ٠٠

***

لقد صحوت اليوم منتعشة النفس كما صحوت أنت ، فاشتريت حريرا وانصرفت الى العمل فى جذل ٠٠ ولكن الضيق عاد الى ركوب كاهلى ٠ فماذا يخبىء لى الغد من الاحداث ؟ أو ترانى سأظل على هذا الحال ، وخير منه برودة الموت وظلمة القبر ٠٠ فليس فى حاضرى ما يشجع على الاستبشار بالعيش والرضى بالبقاء ٠ وليس فى ماضى حياتى ـ وما أكثر ما ترود حولى أشباح ذلك الماضى ـ الا ما يسوء ويحزن ٠ ٠ فما تكفى بحار الدمع لغسل ما رسب فى نفسى من المرارة والحزن على ما لقيت من ظلم الناس ، بغير جريرة جنيتها ٠٠

لقد أوشك الليل أن يخيم ، فاستودعك الله وان كانت الكتابة ترفه عنا ما نلقى ونعانى ٠٠ ولكن لماذا لا تأتى لزيارتى يوما ؟ افعل بربك ، وسأرفع جانب الستار الليلة ، وعمدا فى هذه المرة ، وطاب ليلك .

بربارة

٨ ابريل :

سيدتى بربارة العزيزة !

جاءنى خطابك ، ورأيت بين سطوره مبلغ سخافة كهل فى سنى اذ يتحدث عن الشمس والزهر والربيع ٠٠ فشكرا لك على هذا التنبيه ٠٠

ولكنى لاأدرى لماذا يتبادر الى ذهنك اننى محروم من شيء ، أو انك تكلفيننى ما لا أطيق . كلا .. فانى فى يسر والحمد لله .

ثم كيف خطر لك أن تطلبى منى ان أزورك فى حجرتك ؟أما تقدرين ماذا سيقول المتقولون من ألسنة السوء ؟ انى أود أن أحظى بزيارتك ،علم الله ، ولكن أليس الحذر خيرا وأولى ؟

ليتنى أراك غدا فى صلاة العشاء بالكنيسة ، فمثل هذا اللقاء أليق وأسلم عقبى ..

لقد رأيتك وأنت تزيحين الستار ، ثم تبينت وجهك وأنت تسدلينه قبل النوم . . . فشكرا ياعزيزتى ، ألف شكر .

ورعاك الله وأبقاك يا بربارة　　　　لصديقك الصادق الود

مقار ديوفشكين

٩ ابريل :

عزيزى السيد مقار

أترانى قد أسأت اليك وخدشت شعورك بخطابى ؟ ان هذا لم يخطر ببالى ياذا الفضل الذى يطوق عنقى أبد الدهر ٠٠وانما هى خفتى التى تغلب على لسانى، فيخيل اليك اننى أتهكم ، وحاشاى أن أتهكم أو أعرض لك الا بكل حمد وثناء ٠ ولعلنى ماانزلقت الى ذلك المزاح البرىء الا لما خيل الى من غلبة المزاح والمرح على خطابك ٠ فعفوا ياعزيزى ، ولايخامرنك شك فى اجلالى واعجابى بمزاياك وسجاياك اعجابا لامزيد بعده لمستزيد ٠

انى صحوت اليوم ضيقة الصدر ملولا . ثم اعترتنى رعدة وغشيتنى الحمى ، حتى أقلقت حالتى « فيدورا » . فتعال لزيارتى ياصديقى ، ولا يغلبن عليك الحرج ، فليس فى زيارة بريئة مايضير ..

فاغفر لى مرة أخرى ، وتعال لاراك

بربارة

١٢ ابريل

عزيزتى السيدة بربارة :

ماذا بك يا أختاه ؟ أما تكفين يوما عن اثارة القلق فى نفسى على صحتك المرهفة ؟ ألست قد كررت عليك فى كل خطاب كتبته اليك ، ألا تخرجى فى البرد ، وأن تتدثرى بالملابس الدفيئة؟ ولكنك وأسفاه لا تصغين الى ما أقول، ولا تلقين اليه بالا . فما أنت يايمامتى الا طفلة وان تقدمت بك الايام الى ميعة الشباب . وما أوهن صحتك وأوهى عودك ! فلاتهملى أمر نفسك يا أختاه، حتى لا تلقى بمن يحبونك فى أتون القلق المقيم والقنوط الأليم .

لقد سألتنى عن جيرتى الجدد، وانى محدثك من أمرهم بماتناهى الى علمى أو مارسته بتجربتى القصيرة

وأول ما يسترعى انتباه الانسان فى هذا البيت ، أن له رائحة غريبة ،ولاأقول كريهة .. ولكنها قدلاتستساغ لاول وهلة، حتى اذا مكث المرء فى البيت دقائق معدودات تشبعت يداه وأنفه ،وعيناه ، وثيابه ،وجميع جوارحه وملابسه بتلك الرائحة، فلايحس لها بعد هذا وجودا .

والبيت منذ بكرة الصباح كخلية النحل ، فمواقد الشاى (السامو فار) فى البيت قليلة ،وهى كلها ملك لصاحبته العجوز، فكل انسان له دور معين فى الحصول على نصيبه من الشاى

الحار ·· ومن تقدم قبل دوره أصابته ضربة من جريدة فى يد ربة البيت ، فيصيح السكان مهللين !

وحول مواقد الشاى . وفى انتظار دورى ، تعرفت بجيرانى وعرفت أحوالهم ·· أما فى الليل ، فليس الى النعاس المتصل سبيل ، لان الضباط يسهرون فى حجرة واحدة يلعبون فيها الورق ويصخبون معربدين فى الفينة بعد الفينة ·· ثم هناك أصوات أخرى تنبعث من هنا وهناك ، تنم عن أمور تجرى فى جنح الظلام يخجلنى الحديث عنها لاى انسان ، فضلا عن ملاك مثلك ·

ولكن مايدهشنى حقا ، هو كيف يتسنى لاسر ذات ولد أن تعيش بأطفالها وسط هذا الفسوق المفضوح ·· ففى البيت أسرة من هذا الطراز فاضلة تعيش فى حجرة واحدة ، لايكاد يحس المرء لهم وجودا ، فهم منطوون على أنفسهم ، وحين ينامون فى الليل يجعلون فى الحجرة فاصلا من القماش بين منام الوالدين ومنام الاطفال الثلاثة ·

والاب رجل هادىء جدا ، فصل من الوظيفة لسبع سنين خلت لسبب مجهول ، واسمه « جورشكوف » ، فهو زرى المنظر والملبس ، الى درجة تثير الالم فيمن يراه · وأحسبه مصابا بمرض علمه عند الله ، فركبتاه ترتعدان ، ويداه ورأسه وكل شىء فيه يرتعد ·· واذا مشى لاذ بالجدران حتى لايلمحه أحد · أما امرأته فيبدو انها كانت ذات حسن قبل أن تذوى نضرتها احداث الزمن ·· والحديث عن فقر هذه الاسرة لاينتهى ، فهم فى ضنك شديد . ويقال ان الرجل ينتظر الفصل فى قضية يتعلق بالحكم فيها كل أمل له فى المعاش الكريم ·

وأهول مايهولنى من أمر هذه الاسرة اننى قد أمر بحجرتها وفيها الاطفال ، فلا أسمع أذنى نأمة ، وتلك آية سوء ومحنة

شديدة ، فمايسكت الاطفال الاعن كرب شديد ومذلة ماحقة ..
ومايذكر أحد فى البيت انه سمع أطفال « جورشكوف » صارخين
يوما أو ضاحكين أو باكين ،فكأن حجرتهم قبر صامت .وما
ورد ذكرهم على خاطرى مرة الاركبنى من ذلك هم ، وجفا النعاس
أجفانى .

والآن سلاما ياعزيزتى « فارينكا » فقد غامت نفسى لذكر
هؤلاء المساكين .. وماكنت أودأن أصف لك حالهم ، لولا انك
ألححت فى معرفة جيرتى الجدد، فهاك هم .

واغفرى لى ياملاكى ماترين فى كتابتى من قصور فى التعبير
وعجز فى الوصف والتصوير ،فما أنا الا كهل جاهل فاتته قافلة
العلم صغيرا ، لانه كان أفقر من أن يتعلم ..

وانى لك على الدوام الصديق الصادق الاخاء

مقار ديوفشكين

٢٥ ابريل

عزيزى السيد مقار

قابلت اليوم بنت عمتى « ساشا » ، فواحسرتا عليها ! انها
تكاد تقضى بعلتها القاسية . .وقد علمت منهـا أن « أنا
فيودروفنا » مجتهدة فى استقصاء خبرى ، وتزعم انها
على استعداد للصفح عما فعلت وتعتزم أن تزورنى قريبا . .
وعلمت كذلك انها تتقول عليك، وتزعم أن قرابتك لى لاتخولك
القيام على شأنى ، وانها هى أمس رحما بى منك ، وان من
العار أن أقبل منك المعونة فيمايقوم بأودى .. وانها تنحى
على باللائمة لاننى جحدت فضلها السابغ على أسرتى ! وحتى أمى
لم تعفها فى ثراها من التقريع والتشهير والافتراء .

وأدهشنى انها تصرعلى خطئى، واننى قد ضيعت فرصة
السعادة المتاحة التى هدتنى اليها فالتويت بها عن غايتها..

بل انها تزعم أن « بيكوف » كان محقا اذ رفض الزواج منى ، فما ينبغي أن يتزوج الانسان من أول فتاة يجدها بين ذراعيه ..

رباه ! ان هذا فظيع ! أما كفاني مالقيت من هذا التاريخ الاسود ، حتى أتجرع غصص الغبن وسوء التقدير ؟ عفوك ياصديقي لهذه الثورة ، فاني لاأملك نفسي من البكاء والنشيج .

ولا تلق بالا الى تهويلات فيدورا عن صحتي ، فاني خير مما تصور لك بكثير .. وانما هو برد طفيف أصابني حين توجهت أمس الى القداس الذى يقام فى « فولكوفو » على روح أمى المسكينة ...

لك الله يا أمى ! ليتك تخرجين من قبرك ، وليتك تعلمين وتشهدين ماألقى من بعدك ، وانه لاهون الهوان وأفدح الخسران !.

بربارة

٢٠ مايو :

يمامتى فارينكا :

اليك يا يمامتى شيئا من العنب ، فهو فى رأى الاطباء مما تصلح به النقاهة ويدنو به البرء ، وليس كمثله شيء لنقع الغلة الصادية .. واليك أيضا شيئا من الخبز الابيض ، سمعتك تتشهينه منذ أيام ، فعسى أن تكون شهوتك للاكل طيبة ، فذلك هو لباب العلاج من دائك ... واحمد الله أن ظلاله القاتمة انجابت عن جسدك الرقيق ، فانجابت بذلك عن قلبى سحب الجزع المضنى . ألف شكر لله على تلك المنة العظمى يا أختاه .

وأما ما حدثتك به فيدورا عنى فلا تصدقيه ، فلم يخطر لى قط أن أبيع كسوة عملى الجديدة . فلماذا أبيعها ؟ لماذا بالله عليك؟ فالمال لا ينقصنى ، وسأقبض مكافأة طيبة عما قريب . فلا تلقى بالا الى ترهات فيدورا ، ولا تهتمى الا بما يعجل شفاءك ،

فانك ان شفيت سريعا أتحت لناأكمل سعادة تتاح للبشر فى الحياة الدنيا .

ثم منذا الذى زعم لك اننى قد ضمر عودى واصابنى الهزال؟ محض افتراء ! فأنا فى خير حال،بل أحسبنى سمنت سمنا خليقا أن يخجلنى من نفسى .. فليس ينقصنى شىء ، وأما الطعام والشراب فانى أصيب منهما شبع بطنى ... وليس ينقص من سعادتى الا مرضك ، فابرئى منه تتم لى نعمة الله جميعا .

واستودعك الله يا عزيزتى :ناثرا على أناملك الدقاق ألف قبلة من

صديقك الذى يحفظ عهدك ويرعاه

مقار ديوفشكين

ملحظ : لا تلحى على فى الزيارة ، فقد زرتك حين غيبتك الحمى عن وعيك ، ولكنى لم أعداليها لما رأيت الهمس قد بدأ ينوشنا بما لا يرضى الحق .. فلو زرتك الآن فما عسى أن يظن الناس بنا ؟ فاصبرى حتى تشفى ثم ندبر بعد ذلك أمر لقائنا فى مكان بعيد عن بيتينا ...

أول يونيه

عزيزى العزيز :

كم وددت أن اقدم لك شيئا ينهض بمعروفك وأياديك البيضاء ولكنى لا أملك الا قلبى العارف بالجميل ، الحافظ للود ، المغمور بفضلك العميم ورحمتك وبرك ،وما تجشمت من مشقة وعناء وقلق أيام مرضى الطويل .

ثم عن لى ، فى لحظة اشراق روحى ، أن أنقب فى درج الذكريات الذى احتفظ فيه بتذكاراتى القليلة ، حتى وجدت الكراسة التى كنت قد بدات فيما مضى أدون فيها قصة أيامى ، يوم كان للسعادة والعناية بقصة أيامى موضع .. وانى أبعث اليك بها

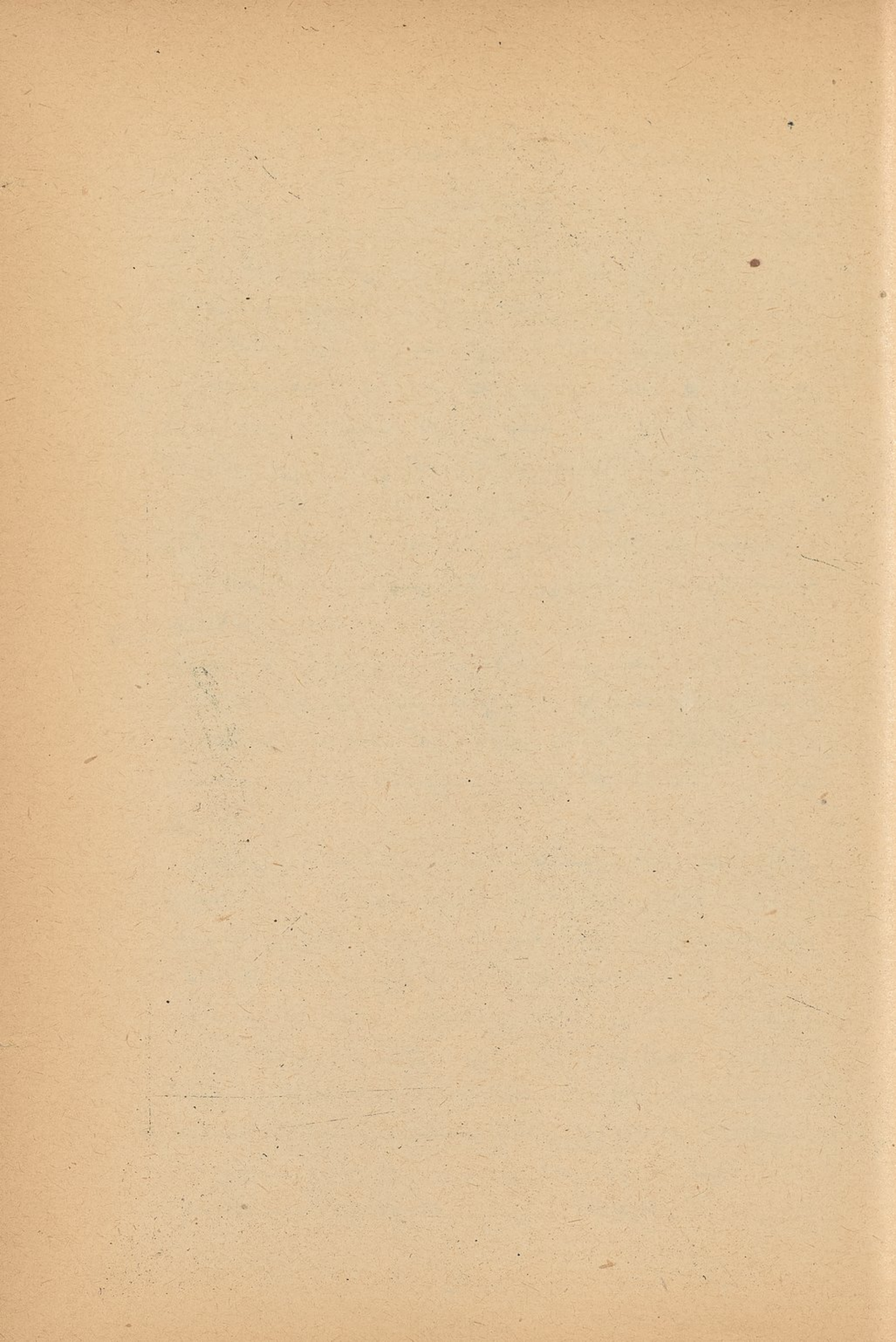
الآن لتقرأ صفحاتها القلائل ... فهى أعز ما عندى ، لانها مرآة سريرتى ..

فكثيرا ما سألتنى يا صديقى عن سالف أيامى ، وعن أمى ، وعن « أنافيودروفنا » ومقامى فى بيتها زمنا ، ثم عن الكوارث التى انحدرت بى الى نهايتى الراهنة . فعسى أن تجد جواب سؤلك فى هذه الصفحات التى سودتها فى أوقات متباعدة ..

أما أنا ياصديقى ، فما وجدت فى تلاوتها اليوم الا ما يثير الكآبة ويشيع المرارة فى نفسى

ووداعا يا مقار .. فانى أرزح تحت عبء من السأم والملالة ثقيل ، وقد بات الارق يلازمنى فى هذه الايام حتى جعل نقاهتى كالصحراء الموات لا نابتة فيها تصافح العين أو نأمة طير تؤنس الأذن ..

بربارة



أصداء الزمن

صفحة طويت ..

لم تكن سني قد جاوزت الرابعة عشرة حين مات أبي ، فانتهى بموته عهد طفولتي ، اسعد عهود حياتي بالاطلاق ...

آه لذلك العهد الذي مضى ولن يعود ! لقد نعمت به زمنا رغدا في بلد غير هذا البلد ، بعيد موغل في البعد ، في موضع من الريف قصي .. فقد كان أبي حينئذ ناظر أملاك الامير « ب . » فكنا نقيم في قرية من القرى التي تضمها أملاك ذلك الامير .

شد ماطابت لنا تلك الاقامة التي يرفرف عليها الهدوء ، وتكتنفها الطمأنينة !. فقد كنت في ذلك الأوان فتاة دافقة الحيوية كثيرة الحركة ، فكنت أقضي معظم أوقاتي راتعة بين الحقول ، ضاربة بين الاحراش والآجام ، أو لاعبة في البستان المزهر الحافل بأفانين الشجر والريحان ، لايعترضني أحد ، ولا يتعقبني بالرعاية انسان : فأبي دائم الشغل بما تقتضيه ادارة الضياع الواسعة من جهد وحركة ... وأمي لاتدع لها شئون البيت فسحة من فراغ . فلم يعن بتعليمي احد من ذوي ، وتركت على سجيتي .

وكم من يوم تسللت من البيت « والشمس في خدر أمها ، والطل لم يجر ذائبه » ، لأشهد يقظة الطير في البحيرة المجاورة ، وخروجه من وكناته ناشطا لتحية الحياة بخفق اجنحته وانغام صداحه المتجاوب بين الارض والماء والسماء ...

وكم من نهار قضيت سحابته في الغابة بين الشجر الالفاف ، والدوح السامق ، والظلال التي لايسبر غورها البصر .. او في الحقول التي انتشرت فيها مناجل الحصاد ، أرقب الحاصدين والحاصدات والعرق يتصبب كالجمان على وجوههم ، والقمح كأنه الذهب الوهاج بين ايديهم وفي احضانهم .. غير مكترثة لوهج الشمس ، او للوحدة في البراري والاحراش .. حتى اذا

عدت الى الدار أنبنى والدى أوقرعتنى أمى ، فما كنت آبه لذلك فتيلا ..

وأحسبنى كنت قمينة الاسأم تلك الحياة بين أحضان الطبيعة ، لو انها دامت الى ماشاء الله ... بيد ان الايام لم تسنح بما أهوى وكتب علينا ان نغادر ذلك المقام الهنىء الى « بطرسبورج » ، وأنا بعد طفلة في الثانية عشرة ... وما ذكرت يوم رحيلنا مرة الا استهلت بالدمع عيناى .. فقد بكيت بكاء مرا وانا اودع كل ترب من أترابى ، وكل صديق من أصدقائى .. وكل انسان ، وكل حيوان ، وكل نابتة فى الحقل كانت صديقا لى نعم الصديق فى ذلك العهد السعيد ..

وانى لأذكر اننى تعلقت بعنق ابى فى ذلك اليوم وتوسلت اليه باكية ان يتركنى فى القرية زمنا قصيرا ، اتزود من تلك الربوع بما يسلينى اذا ذكرتها وقد نزحت الدار وشط المزار ، فاستشاط ابى غضبا ... اما أمى فانفجرت باكية وقد هاج دمعى عند الوداع كامن حزنها وشجاها ... ثم همست فى اذنى ان الاحوال قد تبدلت غير الاحوال ، فقد مات الامير « ب » الشيخ صاحب الضياع ، فاستغنى ورثته عن خدمات ابى فلم يبق مناص من النقلة الى بطرسبورج ، حيث كان ابى قد استودع نفرا من معارفه ما ادخره من مال يسير ، لعله يجدد فى ذلك البلد رزقا ويجعل الله له فيه بعد عسر يسرا ..

.. كذلك حثت خطانا الايام من منزل السعد فى أقصى الريف الى ان انزلتنا ذلك المنزل النكد فى ضفة بطرسبورج اليمنى ، حيث عشنا عامين مات فى ختامهما أبى وانا لا اعدو الرابعة عشرة من عمرى .

وشد ماكلفنى تغير الامور من حولى ، فلا اجد شيئا مما ألفت ،

ولا علم لى بما يتكشف عنه قناع الغد . فكأننى فى متاهة من حيرة العقل والضمير ..

وكيف لا ، وقد غادرت القرية وشمس الربيع تبعث الحياة فى كل شىء ، حتى فى أطلال الاكواخ وأحجار الطريق ! فاذا بى أصل الى بطرسبورج فألفيها متشحة ببرودة الخريف المكفهر ، فلا شمس ولا حياة ، ولا الافق يترامى ما امتد البصر ، فلا يرتد وهو حسير .. ولا الطير غاد رائح على حقول القمح اسرابا أسرابا ، وأصواته تشيع فى الهواء الفرح وتبعث النفوس المنطوية على التفتح للحياة نافضة عنها الاحزان .

كلا ! ذلك كان فى الريف ، أما فى بطرسبورج فالمطر والضباب ، والبيوت القائمة فى كل مكان كأنها سجون الابصار والارواح ! وأين من اسراب الطير الصادح وحداء الفلاح الكادح تلك الجموع من اهل الحاضرة الكبرى يتزاحمون ويتدافعون ، ولا آصرة بينهم ولا ألفة ، فكلهم غريب ، وما من غريب فيهم للغريب نسيب ! فكلهم مشغول بشأنه ، مزور عن غيره ، لايرد التحية الا متأففا ، فالملل ، والتمرد والتبرم بالحياة طابع المدنية الغالب على أهلها فكأنهم اشباح حكم عليها بالعذاب فى واد من وديان المطهر ، يريدون لو فروا ولا يستطيعون ..

***

صنع الله لى ! فما كان اضيق صدرى حين فتحت عينى على أول صباح لى فى بيتنا الجديد ، بعد ليلة تحالف الكرى وجهد السفر فيها على أجفانى .. لقد نظرت من نافذة دارنا الجديدة ، فاذا خربة مسورة وشارع قذر لاينقطع عنه مورد الوحول والاوساخ ، لايمر به الناس الا نثارا متفرقين ، وعليهم أدثرة ثقال .. فيعدى مرآهم الناظر برعدة البرد الزمهرير ...

وكأنما كان ذلك المنظر الخارجى آية على نمط حياتنا القابلة : فلم يمض علينا يوم فى ذلك البيت بدون مكدر ، ولا سيما من جهة

المال . فقد اضطربت أحوال ابى ووقعت بينه وبين « أنافيودروفنا» جفوة بسبب دين لها عليه مطلها اياه مكرها لسوء حاله. وما اكثر ماكان يزورنا قوم مستأدين حقهم فيكثر الصياح والنقاش ، حتى اذا خرجوا نفث فينا ابى غيظه المكتوم ، وصب علينا جام غضبه او انشأ يذرع البيت ساعات طويلة لائذا بالصمت متجهم الاسارير ، فلا تجرؤ أمى على خطابه .. واما أنا فأنتحى ركنا قصيا لاقرأ فى كتاب ، محاذرة ان يند عنى صوت ينبه الى وجودى ...

وما انقضت على نقلتنا الى بطرسبورج ثلاثة اشهر حتى ادخلونى مدرسة داخلية . فشق العيش فيها على نفسى بادىء ذى بدء ، لما فى تلك المعاهد من وحشة وصرامة . فضقت ذرعا بالمربيات والمعلمين، وسئمت الحياة فى شهورى الاولى هناك، فكم من ليلة قضيتها ساهرة يأبى النوم فيها ان يزور مقلتى المقرحة الاجفان . وكم من أمسية جلس الطالبات للاستذكار تحت رقابة مشرفة عبوس ، قضيتها جالسة مثلهن امام الكتب والاوراق ، فلا أرى منها شيئا ، لان خاطرى قد انطلق بعيدا ،الى حيث ابى وامى ومرضعتى العجوز التى طالما اسمعتنى احاديثها وأقاصيصها العذاب فاستهوت خيالى المشبوب .. حتى اذا عدت من رحلتى الحالمة ران الاسى على نفسى حتى لتشتهى الموت ... فأين من ذلك الصمت ، ومن هذا النظام الصارم ورعاية السمت ،دفء البيت ، وحرية الحركة فيه وقبلة الام الحنون التى تشرح الصدر الحزين ..

فاذا أصبح الصباح كنت اجهل التلميذات بدروسى ، فيعاقبنى الاستاذ الهضيم الوجه بالركوع فى مقدمة الفصل ، ويحرمنى من وجبة الغداء ! فأضحى أضحوكة التلميذات ، ومثار هزئهن . وتمادى فريق منهن فصار يعابثنى ، ثم

يشكونى الى المشرفة ظالما .. فأظل طول ايام الاسبوع فى كرب شديد الى ان تأتى مرضعتى مساء السبت لتصحبنى الى البيت ، جنتى الموعودة . فأدخله مشرقة الاسارير ، وقد انسيت بدخوله ما أشقانى فى البعد عنه . فاذا جلسنا للعشاء جعل أبى يسألنى عن مدى ماحصلت من العلوم ، ومن اللغة الفرنسية على الخصوص ، فقد كان الرجل يقتطع من لحمه ودمه لينفق على تعليمى ، فحق له ان يستأدينى الجد والاجتهاد

ومضت الاسابيع تباعا ، وشبح الضنك تتعالى دقاته على بابنا أسبوعا بعد أسبوع ، فأرى صدى تلك الدقات على وجه أمى وسحنة ابى ، واسمعه قوارع لاذعة يصبها أبى على رأسى وعلى رأس أمى المسكينة لسبب تافه أو لغير سبب على الاطلاق

وانحدر الرجل الى هاوية الشيخوخة الباكرة انحدارا سريعا ، بما أكل الهم من قلبه وما عب من دمه .. فلما أصابه البرد ذات يوم اودى به كما تودى الريح بالسراج ، فلم يمهله الا أياما معدودات . فقضت أمى أياما بعد موته لاتفقه ما حل بنا ، فقد استعصى على فهمها أن تصدق انه مات بتلك السرعة ، وتركها فى خضم الحياة وتركنى بلا سند ولا معين .

وما غوضر أبى قبل أوانه حتى انشقت الارض عن دائنين عدد الحصى والرمال ! فاضطررنا الى الخروج لهم عن كل شىء ، وصرنا بلا مأوى ، وبلا مورد يمسك علينا أودنا وماء وجوهنا ..

وكانت أمى تشكو ضعفا عاما وانحطاطا شديدا فى قواها لا شفاء منه الا بتغذية جيدة بتنا ولا طاقة لنا بها .. فكأننا على شفير هار .

وفى تلك المرحلة القاسية من حياتنا أقبلت علينا

«أنا فيودروفنا» ، وفتحت لنا صدرها ، زاعمة أن لها مالا يغل عليها ما يفيض عن حاجتها ،وانها من ذوات قربى أبى ، فهى مسئولة أن تجنبنا ذل المسغبة. وأظهرت من الرقة لنا ما عطف قلبينا نحوها ، وكيف لا ، ومثلنا ومثلها كمثل الارض الموات والسحاب المطر الغدق .

فلما دعتنا الى الاقامة فى بيتها لبينا الدعوة ، لانه لم يكن عن تلبيتها محيص .. وانتقلنا الى منزلها فى حى « فاسيلييف» ذات صباح مقرور الانفاس ،مشعشع بأشعة الشمس وكأنما أصابت حرارة الشمس فى ذلك اليوم فترة ..

فكان وقع خطانا ، وبكاء أمى وهى تنقل خطاها الى جوارى على اتساق مع الطبيعة المكتئبة، فأحسست كأن يدا باردة تعصر قلبى بين جنبى حتى لتكاد تستل روحى ..

لقد كنا على أبواب من داخلها العذاب الاليم .. ولكن لم يكن لنا بد من الدخول ، فدخلنا ..

فى الليلة الظلماء

وما كان لنا حين نزلنا فى دار « أنا فيودروفنا » الا أن نحس الوحشة لتبدل الالف وتحول الحال ..

وكان بيتها عبارة عن خمس حجرات ، تعيش فى ثلاث منها « أنا فيودروفنا » وابنة عمتى ساشا ، وساشا فتاة يتيمة لطيمة ، مات عنها أبواها فتكفلت بها «أنا» . فأقمنا نحن فى الحجرة الرابعة . أما الحجرة الاخيرة — وهى التى تجاور حجرتنا — فيكتريها من « انا » طالب علم شاب رقيق الحال اسمه « بوكروفسكى » ..

والحق أن « آنا » كانت تعيش فى بحبوحة لم نكن من قبل نحسبها تنعم بها ، وان كان مورد معاشها ما يزال حتى ذلك الوقت سرا من الاسرار . فهى لاتنى عن الحركة والخروج بضع مرات كل يوم ، وتستقل العربة كلما خرجت . واذا لم تخرج ظل الضيوف يتدفقون على بابها فى زيارات خاطفة قد لايزيد بعضها على دقائق معدودات تقضيها فى التهامس مع زائرها بنجوة عن الآذان .. وكانت أمى تحرص على الذهاب بى الى حجرتنا الخاصة كلما رن جرس الباب . فيبدو من ذلك امتعاض على وجه « آنا » ، لانها كانت تحب أن يرانا الناس فى ركابها لتزهو باحسانها الينا .. وحفزها هذا الترفع منا الى مخاشنتنا ... فهى تزهو علينا وتمتن ، واذا جلسنا للطعام جعلت تحصى علينا بنظراتها القاسية اللقيمات التى تطاوعنا أفواهنا على التقامها فاذا ثارت كبرياؤنا يوما ولم تواتنا الشهوة للطعام ، ثار ثائرها وعزت ذلك الى ترفعنا عن الطعام لتواضعه ، وما به من تواضع .. وانما هو شعورنا بالضعة والهوان .

وكم من مرة نبشت قبر أبى بلسانها السليط ، مطمئنة الى

أننا لا نملك لعدوانها دفعا . فالدمع متنفسنا الوحيد من ذلك الضيق الجاثم على صدرينا .

ولم نجد لنا مخرجا من ذلك الضنك الا العمل ، فأخذنا نتنقل بين البيوت للحياكة فيها ، مع مافى ذلك من ارهاق لامى التى يزداد هزالها يوما بعد يوم ... لعلنا ندخر شيئا يكفل لنا الاستقلال بمعيشتنا بعيدا عن «آنا» وبيتها المنكود .. فأتى هذا العمل المضنى على البقية الباقية من عافية والدتى ، وباتت تهوى الى قضائها بين سمعى وبصرى ، فلا أستطيع لها شيئا .. وماذا تستطيع عاجزة فقيرة أمام سطوة الجوع والمرض ؟

ومضت الايام أشباها فى قتامها وملالتها وثقل خطاها . ومن أين يأتينا الشعور بالتغير ؟ لقد كنا نعيش بمعزل عن الدنيا قاطبة ، فكأننا لسنا من أهل المدينة التى تموج بالناس وتضطرب بالاحداث . بل اننا صرنا أقرب الى اعتزال « آنا فيودورفنا » لانها طامنت من غلوائها لما رأتنا خاضعتين لها لا نفكر فى دفع الاذى عنا أو مناقشتها فيما ترمينا به أو تنوش به ذكرى أبى . وكان يفصل حجرتنا عن حجراتها الثلاث دهليز صغير ، فكأننا فى جناح مستقل لا يشاركنا فيه الا الطالب الفقير « بوكروفسكى » .

وكان « بوكروفسكى » يلقن ابنة عمتى « ساشا » دروسا فى اللغة الفرنسية واللغة الالمانية والتاريخ والجغرافية وسائر العلوم فى مقابل المسكن والمأكل ، لانه لا يملك موردا للعيش الا تلك المهنة الشاقة .

واقول انها مهنة شاقة ، لان « ساشا » التى لا تعدو

الثالثة عشرة من عمرها شيطانة خبيثة لا تفرغ لها فنون من العبث والمناورة ..

وقد ألمعت « آنا فيودروفنا » لأمى اننى أحسن صنعا لو أفدت من هذه الدروس المجانية ، مادام موت أبى قد حال دون اتمام دراستى ، فرحبت والدتى بهذه الفكرة ، وكذلك بدأت حقبة دراسية تعلمت فيها على يد « بوكروفسكى » وزاملت فيها ساشا مدى عام كامل ..

وقد كشفت لى هذه الدروس عن حقيقة معلمى ، فاذا هو مثلنا فقير معدم .. واذا المرض والفقر قد اجتمعا على بنيته الضعيفة، فلا يتاح له المواظبة على حضور دروسه فى الجامعة .. حتى بات نعته بالطالب أثرا من آثار العادة لا تقريرا من تقريرات الواقع .

ولم أر فى حياتى شخصا فى مثل هدوئه وحيائه الشديد . ولعل مرد هذا الى خزيه من فاقته وزراية مظهره .. فكان هذا الارتباك الذى لايفارقه فى كلام أو مشية أو تحية يثير ضحكى كلما رأيته ، فلا أستطيع مغالبة الضحك وان اجتهدت فى كتمانه طاقتى .. ولاسيما ان « ساشا » الخبيثة لاتكف عن تدبير المعابثات والنكايات أثناء الدرس .

وزاد من استثارته للضحك والمعابثة انه كان سريع الغضب ، يصرخ لأتفه اثارة ، وكثيرا ماكان يقطع الدرس وينصرف الى حجرته غاضبا ونحن نضحك منه ملء شدقينا .

وأكثر وقته كان يقضيه فى حجرته منصرفا الى القراءة فى كتبه الكثيرة . فكل ماكان يحصله من اعطاء الدروس الخاصة فى بيوت الطلاب كان يشترى به مايقع فى نفسه من الكتب بالغا ما بلغ ثمنه ..

فلما انقضت فترة من الوقت تكشف لى هذا المظهر الخادع عن حقيقة لاتشبهه الا مشابهة النقيض للنقيض : فاذا نفس نبيلة وقلب

سرى ، واذا فتى هو أخلق الناس بالتقدير وأولاهم بالفضل والكرامة فيمن عرفت طول حياتى ، فأضحى أصدق أصدقائى بعد أمى .

وقد تفتحت عينى على هـذه الحقيقة بعد عماية حمقاء تخبطت فيها مسوقة اليها بقدوة «ساشا» الرعناء : ففيما نحن نسخر منه ذات يوم وقد أخذتنـا نشوة المعابثة والخفة والتلذذ بمـرأى هذا الفتى مغيظا ثائر الاعصاب، ترقرق الدمع فى عينيه من فرط ماأشعره من القهـر ، وقال فى صوت يختلج فيه البكاء الحبيس، وكأنه يحدث نفسه :

ـ رباه ! ماأضرى الشـر فى نفسيكما أيتها الصغيرتان !

فكأنما نفذت كلماته الى شغاف قلبى ، فشعرت فى تلك اللحظة بفداحة جرمى، وخجلت من نفسى خجلا شديدا . وقلت له فى توسل صادق والدمع يكاد يخنقى :

ـ هدىء روعك ، ولاتغضب فما قصدنا ايذاء شعورك . فلا تؤاخذنا بسفاهتنا وألق علينـا بقية الدرس

ولكنه أبى ، وأقفل الكتاب ثم انصرف الى حجرته غاضبا ،فبقيت سائر ذلك اليوم نهبـا للنـدم والاسى ، لاننا أذللنا كبرياءه حتى دفعناه الى البكاء دفعا .

ولم أذق فى ليلتى تلك طعم النوم الى أن طلع الصباح . فما أذكر ليلة أشأم من تلك الليلة فيما مر بى ..

وانى لاعجب ممن يزعم ان الندم يغسل الحوبة ويسرى عن النفس ماتجده من تأثم ، ويرفع الحرج عنها .. فما وجدت شيئا من ذلك حين تنفس الصبح عن ليلتى الليلاء .. ولعل شيئا من العزة قد خالط ندمي . فقد آذنى أن يرانى طفلة مثل ساشا وأنا فى الخامسة عشرة من عمري .

ومنذ ذلك اليوم صار شغلى الشاغل تبديل تلك النظرة ، والعلو بمكانتى واعتباري عن ذلك الدرك الذى ترديت فيه بعبثى السخيف ..

صورة أب

وأراني مسوقة في هذا الموضع من مذكراتي الى الكلام عن أعجب من رأيت من الناس وأدعاهم الى السخرية والاشفاق في آن واحد. واذا كنت لم أجر قبل هذه الساعة له ذكرا ، فما ذلك الا لانني لم أتنبه لوجوده من قبل .. أما وقد بات يعنيني بين عشية وضحاها كل أمر له بأستاذي « بوكروفسكي » صلة ، فذلك الشيخ الغريب الاطوار أهل لدي لكل رعاية واهتمام ..

فقد كان يلم ببيتنا بين الحين والحين شيخ قصير القامة ، زرى الملبس ، أشيب اللحية ، ضاو ، متخبط الحركات .. فهو معجز في غرابة شخصية وشذوذ هيئته . فالذي يقع في النفس لاول وهلة انه امرؤ رازح تحت وفر من الخزي ، فهو ضيق الصدر بنفسه التي بين جنبيه يتمنى لو واراها عن الناس ! انه يمشي متسللا لائذا بالجدران كي يواري من شخصه ما استطاع . ولكن حركات وجهه واشاراته الشاذة كانت تلفت اليه الانظار ، وتوقع في الاذهان انه انسان مسلوب العقل .

وكان هذا الشيخ اذا جاء الى بيتنا لا يجسر على الدخول من الباب الزجاجي ، بل يبقى في الدهليز الخارجي محاذرا أن يندعنه صوت ، فاذا اتفق مروري به أو مرور ساشا أو أحد الخدم ممن يأنس فيهم الميل اليه ، حيا بحني رأسه دون أن يتكلم ، وأشار بيده اشارات تدل على الرغبة في الدخول مع التوجس من وجود الغرباء .. فاذا أشير اليه أن ليس ثمة غريب بالدار وانه لا مانع من دخوله ، أقدم على اجتياز « العقبة » وقد سرت في وجهه علائم البشر والحبور ، واتجه من فوره الى حجرة « بوكروفسكي » لا يلوى على شيء .. فذلك الشيخ أبوه .. وقد عرفت بعد ذلك دقائق تاريخ هذا الشيخ المسكين . فقد كان موظفا في ديوان من دواوين

الدولة ، ولكن افتقاره الى الذكاء واللباقة والحزم قعد به عن الرقى ، فبقى حيث بدأ خاملا مغمورا . ولما ماتت امرأته الاولى ـ والدة بوكروفسكى ـ سولت له نفسه أن يتزوج من فتاة تنتمى الى الفئة الدنيا من الطبقة الوسطى ، فكانت هذه الزوجة الجديدة فاتحة عهد جديد من الارتبـــاك الشامل والازمات الشداد تتوالى وتتزاحم على منكبى الزوج الضيق العقل المطموس البصيرة والشخصية . فهى امرأة مستبدة ، شكسة ، سليطة اللسان جموح .

وكان بوكروفسكى يوم بنى بها أبوه طفلا لا يعدو العاشرة من عمره ، فسامته هذه المرأة القاسية سوء العذاب ، حتى أخذت الشفقة به سيدا من سراة التجار طالما شمل بوكروفسكى الاب بعطفه فأولى الغلام اليتيم الامر عنايته ، وأدخله القسم الداخلى فى احدى المدارس على نفقته الخاصة . واسم ذلك السيد الاريحى الكريم « بيكوف » : وسر عطفه على الغلام أن بيكوف قريب « أنافيودروفنا » التى ربت أم بوكروفسكى فتاة الى أن زوجتها وكانت بائنتها خمسة آلاف روبل ، خرج عنها السيد بيكوف من حر ماله صدقة خالصة ..

ولست أدرى ماصنع الدهر بهذه الآلاف الخمسة من الروبلات ، فمبلغ علمى عن هذا الموضوع ماصرحت لى به « آنافيودروفنا » أما « بوكروفسكى » نفسه فلم يكن يحب الخوض في حديث أسرته وماضيها .. واذا صدق مابلغنى عن جمـــال أم « بوكروفسكى » الباهر ، فما أعجب اقدامها على الزواج ـ فى بكرة صباها القصير ـ من رجل فيه من البلاهة والقماءة ما فيه .. على فقر وكهولة .. وان لم يكن عجيبا أن تسوء صحتها بذلك الزواج ، فتموت فى ابان شبابها قبل الاوان .

.. وواصل بوكروفسكى دراسته موفقا فيها الى أن دخل

الجامعة ، وكان السيد «بيكوف» يحضر الى بطرسبورج بين الحين والحين فيشمله برعايته ويزوده بما يلزمه من المال .. حتى اذا عاقته صحته عن مواصلة الدرس فى الجامعة ، قدمه الى « أنا فيودروفنا » وأوصاها به خيرا ، فأنزلته فى بيتها وكفلت له فيه المأوى والمأكل مقابل تعليم الخبيثة « ساشا »

أما والده الشيخ فزادت حاله سوءا ، وأفضى به الحزن والهم لما تصبه زوجه على رأسه من جام العذاب الى ادمان الخمر ، حتى بات لايفيق . . كأنما قد كان ينقصه هذا الداء الوبيل ليضيف الى نقائصه نقصا جديدا ..

فلما أدمن الشراب زادته امرأته نكالا ، وصارت تضربه ولا تسمح له بالنوم الا فى المطبخ ! حتى أصبح الضرب عنده صنو الخمر ، يتقبله منها دون مقاومة ودون استياء !

وقد عجلت هذه الارزاء بشيخوخته ، فهو أصغر بحساب الايام والسنوات مما يبدو للناظرين ، ولكنها آفاته الشداد ، أسلمته الى الهرم وبلغت به أعتاب الجنون ، وأخذت تدق له بابه دقا عنيفا فهو أشبه الناس بالدواب والبهم ، لولا عاطفة انسانية واحدة تسمو به عن ذلك الدرك ، هى حبه لولده « بوكروفسكى » حبا لاحد له . .

ويقال ان « بوكروفسكى » يشبه أمه شبها غريبا ، فلعل ذكرى تلك الزوجة المفقودة هى التى تلهب مشاعر الرجل المفجوع بها مرتين : مرة لفقدها ، ومرة لما أصيب به حين استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ..

ومهما يكن من شىء ، فالذى لاشك فيه ان الشيخ كان مولعا بولده ، فلا حديث له الا عنه .. ولا ينقضى اسبوع دون ان يأتى لزيارته مرتين . واحسبه لم يكن يزيد عليهما لانه كان يعلم ان ولده لايرتاح الى وجوده معه . وأظن ازدراء الفتى لأبيه كان

أبرز اخطائه ونقائصه طرا ٠٠ بيد ان الانصاف يقتضينا ان نقرر الواقع : فالشيخ كثيرا مايستنفد ببدواته وسماجته صبر كل صبور ، وما اكثر مايصرف ولده عن عمله او يقطع عليه حبل قراءته بحديث لا ترابط بين حلقاته واسئلة لامعنى لها ولا طائل تحتها ٠٠٠ يضاف الى ذلك كله انه قد يأتى لزيارته مخمورا ٠

وقد حاول الشاب ان يثني والده الشيخ عن عاداته الوبيلة، وان يصرفه عن الفضول والثرثرة ٠٠ حتى افلح فى حمله على التزام الصمت التزاما تاما ، فلايفتح فمه الا حين يأذن له فى الكلام ٠

وما كان هذا الاقلاع عن عادات طال عليها الامد ، واتصلت جذورها العميقة بنقصه النفسانى المزمن ، ممكنا لولا سلطان الولد على أبيه ٠ فالشيخ معجب بأبنه أشد الاعجاب ، وهو عنده مثل أعلى أو قبس خارق من عالم الارباب ٠٠٠ فلا يدخل عليه الا متطامنا متضائلا كالمستغفر ٠ وبعد تردد طويل فى الدخول ، فاذا لقينى فى الدهليز استوقفنى ليسألنى عن احوال ولده سؤالا فى أثر سؤال ، حتى لقد يطول بنا ذلك الحديث ، او التحقيق ، ربع الساعة او عشرين دقيقة ٠ تدور كلها حول حالة الفتى الصحية ، وما يشغله فى هذا الاوان ، أهو الكتابة أو التفكير فى موضوع فلسفى ؟ وهل مزاجه معتدل ؟ حتى اذا طمأنته وشجعته استخار الله فى الدخول ٠٠ فيفتح باب الحجرة ويطل منه برأسه ٠ فاذا مارأى من ابنه بشاشة الانس والترحيب ولج الباب على أطراف اصابعه ، ثم خلع معطفه البالى وقبعته التى انتشرت فيها الثقوب وكاد البلى يفصل سقفها عن جوانبها ، مخافتا من حركاته كمن يخشى ان يوقظ نائما خفيف الجفن ، ثم اتخذ لنفسه مجلسا يكمن فيه مثبتا نظراته فى ولده ، حتى لاتفوته شاردة ولا واردة من حركاته وقسماته وكلماته ٠ فاذا

لمح فيه ماينم علـى الانقبـاض والازورار نهض من مقعده منصرفا متعللا بأنه لم يكن يريد الزيارة، وانما قد عن له ان يمر بأبنه فى طريقه مرور استطلاع ، وكيمـا يستريح برهة قصيرة لان الموضع الذى يقصده بعيد الشقة ... ثم يتناول قبعته ومعطفه ويخرج كما دخل فى هدوء ، وعلى شفتيه ابتسامة يصطنعها ليخفى عـن ولده ماشاع فى نفسه من الاسى

أما اذا أحسن الفتى استقبال ابيه وهش له ، فما تكاد تتسع له الدنيا من شدة الفـرح .. فللسرور فى مقلتيه فيض مـن اللألأ لا يعهد فى نظرتهما الكابية وللبهجة فى حركاته خفة واتساق .. فاذا ماوجه اليه ابنه الكلام تحفز للنهوض من مجلسه واجابه فى نشـاط تمتزج به الـرقة والتواضع والاكبار الذى يكـاد يدخل فى باب العبادة والتقديس فيتخير الفاظه تخيرا يشق عليه فلا يستطيـع استعمـالها فى مواضعها على وجههـا الصحيح ، فتخرج العبارات من فمه آية فى الفكاهة والطرب ، وما قصد الى فكاهه أو طرب ... وتستبد به الحيرة حينئذ ، فلا يفتأ ينقـل يديه لا يدرى أين يخبئهما ، فعل الجانى المتلبس بجريمة يثقـل عليه وزرها . ثم ينتهى به الامر الى اللعثمة والهمس ، ويتصبب وجهه عرقا ، خزيا ممـا انتهى اليه أمره » بين يدى « معبوده ..

أما اذا اتفق له جواب لائق أو عبارة سائغة ، فما اسعده بهذا التوفيق الذى يمـلى له فى الاستطراد ، فلا يحار اين يخفى يديه ، وانما هو يسوى بهمـا رباط عنقه ، ثم يثبتهما فى جيبى صداره مزهوا بنفسه !..

وقد يتمادى فى هذه الاحوال فى الثقة بنفسه ، فيتجاسر على الوقوف والتمشى فى الحجرة ، ويمد يده الى كتاب من كتب ابنه فيقلب صفحاته متكلفا الهـدوء والاطمئنان ، كأن بشاشة ولده هى القاعدة المألوفة ، وكأن انطلاقه على سجيته فى حجرة ولده عادة له جارية ..

ولكنى شهدت مبلغ ذعر الشيخ وقد نهاه ابنه ذات يوم عن لمس كتبه وأوراقه ، فبادر الى وضع الكتاب الذى كان بيده فى مكانه ، فوضعه لاضطرابه مقلوبا ، فتناوله مرة اخرى كى يصحح وضعه ، فاذا به يضعه فى هذه المرة وفتحته الى الخارج! فأخجله هذا الخطأ الجديد ،واحمر وجهه احمرارا شديدا ، وحار فى نفسه كيف يخفى جريمته ..

فبهذا السلطان استطاع « بوكروفسكى » الشاب ان يقوم من اعوجاج ابيه الشيخ ،وكان اذا رآه ثلاث مرات تباعا صاحى الفؤاد غير ثمل اعطاه نصف روبل او أشترى له حذاء او رباط عنق أو صدارا ..

وما كان اعظم فرح الشيخ بهذه العطايا ، التى يتيه بها مزهوا ، وقد يدخل حجرتنا ليرينا اياها ، حاملا الينا شيئا من الحلوى او التفاح مما افاء عليه ابنه ثمنه ... وليتحدث الينا عن مزايا ابنه ماشاء له الله أن يتحدث

وكانت أمى ـ رحمها الله تحب الشيخ وتعطف عليه كثيرا فكان الشيخ يأنس اليها .. أما «أنافيودروفنا» فكان ـ لو أطاق ـ يولى منها فرارا وقد امتلأ منها رعبا ، لولا انه يخشى نقمتها وغضبها ، فيظل بمحضرها ما أذنت له فى البقاء صامتا مطرقا ..

برج الخفاء

لم تطاوعني نفسى على متابعة الدرس على يد بوكروفسكى، فقد تحليت امامه بالرزانة والعقل ،وحملت « ساشا » على الاقلاع عن ألاعيبها ومعابثاتها حتى بات استاذنا الشاب ناعم البال لايعكر صفوه منا معكر ، ولكنه مافتىء ينظر الى نظره الى طفلة لم تبلغ الحلم ، وكل ماطرأ عليها من تغير انها كانت طفلة عابثة لاغية ، فأضحت طفلة هادئة رزانا وهى فى حاليها ماتزال طفلة . ولم تجد معه محاولاتى الكثار فى لفت نظره الى ماامتاز به على « ساشا » من صبا وسن تسلكنى فى عداد الشابات الاوانس .

ولكن هذه المحاولات لم يكن أمامها متسع غير ساعات الدرس فما كنت اجد فى نفسى جرأة على خطابه فى غير تلك الساعات ، فما ألمحه فى البيت رائحا أوجائيا حتى يحمر وجهى ويجف حلقى فيلتصق به لسانى وتبرد اطرافى فلا أنبس ببنت شفه . فاذا فاتت فرصة السلام او الكلام اسرعت الى ركن قصى أنتبذه لأبكى فيه خيبتى وسوء حالى ..

ولست أدرى حتام كان هذا الحال قمينا ان يدوم ، لو لم تسنح فرصة من سوانح العناية فتكشف ماكان بيننا من حجب ، وتقرب بين قلبينا على غير انتظار

فقد كانت امى ذات ليلة فى حجرة « أنا فيودروفنا » لشأن لها أو لسمر ،ولم يكن بوكروفسكى فى البيت ، فدخلت الى حجرته متلصصة على اطراف اصابعى ،وقد استولت على رغبة قاهرة لاعقل لها ان استطلع خفاياها بنجوة من الرقباء . فقد كان يلقى علينا الدروس فى حجره ساشا ، ولم اكن قد دخلت حجرته الخاصة على تقادم العهد على جيرتنا نيفا وسنة ..

برح الخفاء !

وما دخلت من البـــاب حتى الفيت قلبى يدق داخل ضلوعى دقا عنيفا متداركا حتى لقـــد خشيت ان ينفطر او ينشق ٠٠ ولكن ذلك الوجيب لم يصرفنى عن التطلع فى فضول شديد الى كل ماحولى ، فاذا اثاث متواضع جدا ، تزيد الفوضى الضاربة عليه من حقارته وضعته : فعلى المقاعد والمائدة اوراق مبعثرة ، وعـــلى الارض اوراق اخـــرى وكتب واضابير ٠ فقفز الى خاطـــرى شعور جد اليم غمر وجدانى فى تياره الطاغى : فقد قر فى نفسى ان هذا الفتى لايمكن ان يرى فى صداقتى وحبى مقنعا له وغنى عن كل حب وصداقة ، فهو عالم واسع العلم والثقافة ، بعيد مرمى الفكر والقريحة ، وانا فتاة جاهلة او فى حكم الجاهلة ، لايكاد ماقرأته يستحق الذكر ، فما أذكر اننى قرأت كتابا برمته من الدفة الى الدفة ٠٠

ووقفت وسط هذا الطـوفان من الـكتب أنقل بينه بصرى ، وأرمى بنظـرات الحســد رفوف المكتبة التى تكاد تنوء بما تحمله من الاســفار الثقال ٠ ٠ ورأيت نفسى وقد تقسمها الاسى، والحسرة والغضب الجائح الذى يحفـزنى الى العمل ، اى عمل يخرج بى عن هذا الموقف الاليم ٠

وكان اول ماعن لى ان اقرأ هذه الكتب جميعا ، من اول كتاب فيها الى آخر كتاب ، لا اترك منهـــاشيئا ولا افرط فى شىء ، فى غير وناء ولا ترفق ٠٠ فلعلنى اذا انا فرغت من قراءة كل ماقرأ ، أكون كفئا لحبه وصداقته ٠٠

وهجمت على أول رف مـــن رفوف المكتبة ، فتناولت اول كتاب فيه دون تدقيق او رغبـــة فى التحرى والانتقاء ، فاذا سفـــر قديم اصفرت اوراقه وعلاه الغبار فحملته مضرجة الوجنتين خافقة القلب واجفـــة وانطلقت به الى حجرتنا وانا احسب اننى قـــد

وقعت على كنوز قارون ، وفى مرجوى ان اقرأه على ضوء «الذبالة الساهرة » اذا ماسجا الليل ونامت عين والدتى ٠

وفتحت الكتاب فى حجرتنا قبل ان اضعه فى الدولاب ، فاذا شىء خاب له رجائى العظيم :فما كان ذلك الكتاب الا مجموعة نصوص لاتينية لا افقه منها شيئا ، فأسرعت به الى حجرة بوكروفسكى قبل فوات الاوان٠ وما هممت بوضع الكتاب حيث كان حتى سمعت فى الردهة وقع اقدام الشاب عائدا الى حجرته ٠ وكانت الكتب الاخرى قد احتلت مكان الكتاب الذى اخرجته من بينها ، فأسرعت فى افساح مكان له والخوف يهزنى هزا شديدا من أن يفاجئني بوكروفسكي متلبسة بالجريمة الدامية ، فاذا بالمسمار الذى يمسك الرف الى الجدار يتداعى ، كأنه كان ينتظر هزة يدى انا الشقية حتى ينوء بما كان يحمله زمانا طويلا دون كلال فوقع الرف وتناثرت الكتب على الارض ٠٠ فلو ان قنبلة انفجرت بين قدمى لما كان لها أهول من وقع هذه الاسفار وضجتها المكتومة ٠

وفى هذه اللحظة انفتح الباب وبرز منه بوكروفسكى ٠٠ وكنت اعلم مبلغ حرص الشاب على كتبه ، فالويل لكل من تحدثه نفسه أن يمسها بخير او بشر ٠ فناهيك اذن بما استولى على من الفزع فى تلك اللحظة ، وقد تناثرت كل تلك الكتب ، فأخذت تتراقص تحت المائدة والمقاعد ،وفيها العماليق والاقزام ، والاشياخ والاطفال والسمان والعجاف ٠٠٠

لقد وودت أن أولى الادبار فرارا من هذا الموقف الشديد ، ولكن أين المفر ؟ لات حين فرار ! وحدثتنى نفسى ان هذه الفعلة حرية ان تثبت فى ذهن الشاب ظنه بى ، اننى لست الا طفلة لاغية لاهية ، تعبث بكل شىء متى أمنت عين الرقيب ، فهى قاصرة العقل خاسرة مفسدة !

وقد صح ماتوقعت : فما ان مضت لحظة صمت كأنها الدهر أو ساعة من يوم الحشر ، حتى انفجر مرجل غضبه وانشأ يعنفنى ثم انحنى على الارض ليجمع ما انتثر من كنزه الثمين ، فانحنيت مثله أجمعها ، فصاح بى فى هياج شديد :

ـ اليك عنها ۰۰۰ فلا تتعبى نفسك فيما لاينبغى لك ۰ وكان خيرا لك قبل هذا الا تدخلى مكانا لم تؤذنى فى دخوله ولم يدعك الى دخوله صاحبه !

فلما رأى خجلى وصمتى وتأثمى خفت حدة غضبه ، واستطرد بعد حين فى لهجة أقل حدة وعنفا :

ـ أما آن لك ان ترعوى ؟ اما آن لك ان ترشدى وتتجنبى أفاعيل الصغار ؟ ألم تحسى انك قد عدوت طور الطفولة ، فأنت الآن فى الخامسة عشرة يافتاة !؟

وكأنما أراد ان يستوثق من صوابه حين قال انى بلغت الخامسة عشرة ، فرجع بصره فى قامتى علوا وسفلا ، فاذا تلك النظرة تسكب فى وجهه وأذنيه طوفانا من دم الخجل والحياء !

ولم ادر لاول وهلة ماذا اصابه من هذه النظرة التى تفحصنى بها وانا واقفة امامه فاغرة الفم أحملق فيه فى دهش وارتباك مما فعلت ، فاذا به ينهض ويتقدم نحوى ـ ولا تزال حمرة الخجل تطل من أديم وجهه ـ فيتمتم ويبرجم كلاما لم افقه منه شيئا ، لعله يكون اعتذارا عن حدته او عن غفلته عن نماء عودى واستواء قدى حتى ذلك الاوان ۰ ولكن نور الحقيقة غمر سريرتى على حين غرة فوعيت مالم أع من قبل ، واحمر وجهى بأشد مما احمر به وجهه ، حتى أطاش الحياء والخفر ماكان لى من جأش وبديهة فغطيت وجهى بيدى وانطلقت أعدو هاربة الى غرفتى ۰۰ هاربة منه ، ومن نفسى ، لو ان الى الفرار من نفسى سبيلا ۰۰۰

بارقة رجاء

رباه أين أخفي عنه وجهي وأستر عن عينيه عاري ؟ لقد وجدني ـ أنا الآنسة الناضجة الصبا ـ في حجرته، وهو الشاب العزب وتلك لعمري كبيرة الكبر ...

... ومضت ثلاثة ايام لم أخرج فيها من غرفتي ، حتى لايراني بوكروفسكي ، وكنت اذا سمعت خطوه خارجا او داخلا غامت بالدمع عيناي لفرط ماينْدفع الى وجهي من الدم الدافق الحار ثم اخذت تراودني افكار اتأملها الان فأجدها غريبة سخيفة مضحكة ، ولكنها كانت وهي مستولية على تبدو لي وجيهة واجبة الاداء ... فقد هممت مثلا أكثر من مرة ان أتوجه الى غرفته لاشرح له حقيقة دوافعي لزيارة غرفته أثناء غيابه ، فلايذهب به الظن الى ما لم يكن من همي ولا خطر لي على بال ، فأي محنة لوجداني أن يحسبني طفلة تعبث بما ليس لها أن تمد يدها اليه ، أنا التي ماأقدمت على هذه الفعلة الاطمعا في الارتفاع بمكانتي عنده ..

وددت لو عرف الحقيقة حتى اكبر في عينيه . ولكن شجاعتي خانتني وقعدت بي عن تحقيق ماراودتني عليه نفسي .. الى أن مرضت والدتي بعد بضعة ايام مرضا شديدا الزمها فراشها يومين . فلما كانت الليلة الثالثة غشيتها الحمى حتى اسلمتها الى الهذيان . وكنت قد سهرت الى جوار فراشها الليلة السابقة فلم يغمض لي جفن، حرصا مني على خدمتها وقضاء حوائجها واعطائها الدواء في أوانه الموقوت ، فلم أستطع في هذه الليلة مقاومة النعاس ، ولم تطاوعني نفسي على الاستسلام له ، فبقيت على مقعدي يتقاذفني الوسن واليقظة ، ويكاد اعيائي الشديد ينتهي بي الى الاغماء ... فما اغفو برهة حتى يوقظني انين امي

المدنفة ، فأهب من نومى فزعة وافتح اجفانى الثقال لحظة ، ثم يغلبنى التعب والكرى فاقفلها واغوص فى غيبوبة مالها من قرار ٠

وطالت نوبة نعاسى آخر الامر ورأيت فيما يرى النائم حلما اقض نومى ، فانتبهت مذعورة مبهورة الانفاس ، فاذا ذبالة المصباح تجود بانفاسها الاخيرة ، وقد خيمت الظلمة على الغرفة ، فخيل الى انها امتداد محسوس لحلمى الفظيع ، فقفزت من مكانى واطلقت صرخة ندت عني دون أن أعى ٠٠٠ فاذا بابنا يفتح فى تلك اللحظة ، واذا «بوكروفسكى» يدخل منه ٠

ولست اذكر الان من تلك الليلة الا انه كان يسندنى بذراعه عندما استفقت من غشيتى وثبت الى نفسى ، فأجلسنى فى رقة وعناية وقدم لى قدحا من الماء ، ثم اخذ يمطرنى وابلا من الاسئلة ٠ ولا ادرى بم اجبته ، فانه تناول يدى فى يديه وقال لى :

ـ اراك مريضة ، مريضة جدا ، فحرارتك مرتفعة ٠٠٠ واحسبك تنزلين بصحتك ضررا محققا بما ترهقين به نفسك من خدمة والدتك وتمريضها ٠ فارقدى الان واستسلمى للنوم ، وسأوقظك بعد ساعتين ٠

فلما هممت بالاعتراض ، قال فى الحاح المترفق :

ـ لا تتكلمى ٠ استريحى وهدئى من ثائرة اعصابك المتوترة قليلا ٠ فهذا ألزم ماينبغى لك الان ٠

وكان الاعياء قد استنفد مقاومتى ، فما سمعت كلماته تلك حتى اقفلت اجفانى ونمت مضطجعة فى مقعدى ، وفى عزمى ان استيقظ بعد ساعة او أقل من ساعة ٠٠ ولكنى نمت حتى الصباح ! فلم يوقظنى بوكروفسكى الذى سهر على أمى تلك الليلة الا حين آن أن أسقيها جرعة الدواء ٠٠

وأصبت فى ذلك النهار قسطا من الراحة ، ليسعنى ان أسهر فى الليلة التالية على والدتى مصيمة على مقاومة الوسن حتى مطلع النهار . ولكن ما سجا الليل حتى طرق بوكروفسكى باب غرفتنا ، وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة ،ففتحت الباب ، فاذا به يقول لى فى لطف ورفق :

ـ لقد خطر لى انك قد تسأمين الوحدة فى سهرتك ، فأتيتك برفيق انيس ، هو هذا الكتاب ...

فتناولت الكتاب من يده وانصرف ، ولست اذكر ماذا كان عنوان هذا الكتاب ، ولا احسبنى فتحته ، وان كنت قد قضيت ليلتي تلك ساهرة لم اذق طعم الكرى ، فقد كان ضميرى مسرحا لشعور غامض ولكنه جياش ذادعنى الوسن وأبقى وعيى مركزا فى بؤره مشاعرى المضطربة الامواج

بيد أن ذلك الاضطراب الذى سهدنى كان من العنف بحيث أقضى مجلسى ، فلم أستطع التلبث فى معقدى على استقرار ، فما اكثر ما قمت اتمشى فى الحجرة على اطراف اصابعى .

ولكن حاشا ان يشتبه هذا القلق بما يورثه الحزن والهم من اضطراب وأسى .. كلا ! فقلقى تلك الليلة قلق جلو ، مرده الى فيض السعادة التى امتلاءت بها جوانحى حتى ضاقت عنها ،فراحت تنشد لطاقتها الفائضة مخرجا فى الحركة ، ولولا مرض امى لتلمست متنفسا لها فى الغناء. فقد سرنى اهتمام بوكروفسكى بشأنى ولمست قلبى « لفتتة » حتى ملأتنى زهوا ، وفتحت لى باب الاحلام الذهبية فرحت اعب منها تلك الليلة ما وسع خيالى الخصيب ان يسعف روحى الظمأى بالاكواب المترعة بعد الاكواب من نبع تلك الاحلام ورحيقها المصفى

وقد صمد خيالى لظمأ روحى، فظل ساهرا معها يسقيها كؤوس

الاحلام حتى مطلع النهار . فلم يطرق بوكروفسكى الباب طول الليل سائلا او متعللا بالسؤال وكنت اعلم انه لن يفعل ، ولكنى كنت سعيدة ، وكنت راضية بالانتظار الى المساء التالى ،واثقة انه سيعود حينئذ الى السؤال والعطف ...

... وجاء المساء التالى ،ووقف بوكروفسكى بباب غرفته يعالج فتحه بمفتاحه ، وكان باب حجرتى مفتوحا فحيانى وسألنى عن حال امى وعن حالى .ولست اذكر عبارة واحدة مما تبادلنا من الحديث ليلتئذ ، فقد كان الحياء يفتت اعصابى ويمزق اوصالى ويشل وعيى .. حتى لقد استعجلت نهاية هذا الحديث الذى بت ليلتى وقضيت سحابة نهارى احلم بدنو ساعته !

أهذا هو الحب ؟ ماذا فيه اذن مما تصرخ اعماق النفس فى طلبه وتشهيه ؟

كلا ! انه ليس حلو المذاق ،وليس كالشهد المصفى ، ولكنه مع هذا منية القلب وطلبة الروح ...

وليس من دليل على هذا أكبر من ان تلك الليلة بالذات كانت بداية صداقتنا الصريحة الصافية ، فكان عينا وضيقنا واضطرابنا فى الكلام بمثابة اوجاع المخاض التى ولدت تلك الصداقة الجميلة الطاهرة ... وبتنا نقضى كل ليلة من ليالى مرض والدتى الطويل بضع ساعات فى صحبة ناعمة الى جوار فراشها ...

وتكفلت الليالى المتعاقبة بالقضاء على فيض حيائى ، ومهدت أمام عقلى الطريق الى رباطة الجأش والسلوك المتزن ... وان كنت قد بقيت على ما اعهده فى نفسى من الشعور بالتخلف عن السمت اللائق .

وقد أثلج صدرى ان اراه يهمل كتبه المعبودة لديه فى سبيل

الجلوس الى والعناية بأمرى وامرامى من اجلى ... فتفتحت نفسى لصداقته وزادت ثقتى بها .

وفى ذات يوم جرنا الحديث الى حادث المكتبة التى عبثت بها فى حجرته حتى وقعت الكتب على ارضها ، فاذا بموجة من الصراحة تجرفنى فى تيارها ، فأصارحه بالحقيقة كاملة ، ولا اكتمه ان دافعى الى ذلك العمل هو رغبتى الملحة فى تثقيف عقلى حتى تتغير نظرته الى فأعدو عنده طور الطفولة الى مرحلة انداده من الشباب .

واتها لجرأة منى لا ادرى كيف واتتنى ، ولكن صداقتنا كانت من الصفاء بحيث تقتلع الحواجز والاستار ولا تبالى القيود والتقاليد والمواضعات .. فاعترفت له بالحقيقة والدموع تتلألأ فى عينى ... وصارحته بما كان يعتلج فى اعماقى من رغبة قوية فى كسب مودته ، بل فى حبه ومزج حياتى بحياته .

وكان بوكروفسكى يصغى لى وهو مبهوت ، فلم ينطق بكلمة ، حتى خيل الى انه لم يفقه ماقلت له . او انه يسخر منى فى طوايا سريرته ... فسرت فى نفسى موجة من الكآبة عاتية ، وطفر الدمع من عينى ، ثم اجهشت باكية ، كما يبكى الاطفال فى غير احتجاز .. ثم انقلب البكاء الى نشيج يتفزز منه جسدى كله وتختلج به جوارحى ، فتناول راحتى بين راحتيه ، ووضعها فوق صدره ، ثم غمرها بقبلاته فى رقة وحنان ، وجعل يناجينى فى صوت هادىء عطوف .

ولست اذكر الان ماذا قال لى حينذاك ، ولكنى اذكر تمام الذكر اننى جعلت أبكى وأضحك وأنا اسمعه طورا بعد طور ، وان الحمرة والاكفهرار كانا يختلفان على وجهى .. وان الحرارة والبرودة كانتا تصطرعان فى اطرافى ، وان الكلمات هربت من فمى حتى لقد شككت فى وجود لسانى ...

وهدأ من روعى وسكن من طائرى ان بوكروفسكى جعل يبادلنى ودا بود ، واتقاد عاطفة باتقاد عاطفة ، وانجاب عنه الذهول لما فوجىء به من عاطفة لم يكن يتوقع لها وجودا فى حنايا صدرى . فسرت حرارة النشوة الى كيانى ، وادفأت قلبى المقرور ، وبت ناعمة بسعادة لم اذق من قبل لمثلها طعما . ولم اكتمه مبلغ سعادتى بحبه وقربه فزادنى هذا الاعتراف من قلبه قربى ، فنمت محبته لى على الايام ، بل على الساعات ، نماء متصلا مطردا .

وما كانت احاديثنا فى تلك الليالى الحلوة شيئا مما يدون او يذكر ، فهى سمر تافه الموضوع ولكن النور الذى كان يدفىء قلبينا كان يشرق على تلك الاحاديث فنحسبها وضيئة مشرقة البيان .

لقد كانت تلك الاحاديث جدولا رقراقا يتدفق من نفسينا فى غير تعمل او تكلف . وفى ذلك التدفق الجميل الصافى سر عذوبتها وشجاها ، وحسن جرسها وصداها ، وطيب عرفها ورياها فهى اصداء نفسين تتفتحان بعد طول احتباس ، وتشرقان بعد ظلمة وطول تخبط والتماس .. ومازالت تلك الاحاديث التى طوى عهدها الزمن الساطى نورا لى - على ما تثيره من الالم عندى - كلما حزبنى أمر وتكاثرت على الاحزان ..

*

... وتماثلت أمى للشفاء ، ولكنى بقيت على عادة السهر بجوار فراشها ، فكان بوكروفسكى يمدنى بالكتب اقرؤها فى سهرى فكنت اقرؤها اول الامر ذودا للنوم عن اجفانى ، ثم صرت أقرؤها تشوقا الى المعرفة وتلهفا على الاطلاع .. فقد فتحت أمامى افاق جديدة لم اكن احس لها من قبل وجودا ، وبت ارى وجدانى يزداد على الايام عمقا واتساعا وغنى .

فلما برئت امى من علتهـــا وغادرت فراشها ، انتهت ليالى السهر والسمر ، واصبحت فرصة الحديث أمامنا لاتسنح الا خلسا قصارا لا تنقع غلة ولا تشفى اوارا .. وانما هو السلام وما يلحق بالسلام من مبتذل الكلام .. بيد انى كنت أحس لتلك العبارات العابرة طعما غير طعم سائر الكلام ، لان الفقر فى زاد حبنا الخارجى كان هينا علينا بما فى قلبينا من زاد لا ينفد ، وما فى نفسينا من غنى روحى وطمأنينة لا تقوى عليها زعازع الحرمان ...

عيد الحبيب

... انقضت على هذا النسق جملة اسـابيع ، ثم حضر بوكروفسكى الاب لزيارتنا ذات صباح ، واخذ يجاذبنا اطراف الحديث ، فى جذل وخفة رشيقة لم نعهدهما فيه من قبل ،فكانت لحديثه طلاوة فكهة اشـاعت السرور فى نفسه ونفسينا ... ثم كشف لنا عن موضوع زيارته فاذا عيد ميلاد « بتينكا » (وهو اسم التدليل لبوكروفسكى) يحل بعد أسبوع ، وانه ينوى ان يزور ولده فى هذه المناسبة محتفلا بها فى هندامه وبزته اكبر احتفال مستطاع ، فيرتدى صدارا جديدا ، وينتعل حذاء وعدته زوجته ان تشتريه له .. وقد استخفته هـذه الاحلام الساذجة حتى لم يعد يستطيع كتمانها فى صدره ، فجاء الينا لنشاركه فى نشوتها لما يعرفه من مكانة ولده لدينا ، انا وامى

ولم يدر بخلد الرجل انه احدث فى نفسى أثرا عظيما بهذا الخبر فلم يهدأ لى من بعده عيش لكثرة ما فكرت فى هدية اهديها اليه ، تذكره بصـداقتى الراسـخة العميقة الجذور فى قلبى . ولم يهدنى التفكير الى هدية اليق به من كتاب او مجمـوعة كتب . وكنت اعـرف انه كان يشتهى اقتناء مجموعة بوكشين الشاعر كاملة فى طبعتهـا الاخيرة ،فعزمت على شرائها لتكون هديتى اليه . وكنت ادخر ثلاثين روبلا ، لاشترى بها لنفسى ثوبا جديدا فأرسلت طاهيتنا العجوز «ماترينا» لتسأل عن ثمن مجموعة بوشكين الكاملة ، فاتضح ان الاجزاء الاحد عشر لايقل ثمنها مجلدة عن ستين روبلا ، فحرت كيف ادبر بقية هذا المبلغ ، وكرهت ان اطلب من والدتى شيئا ، حتى لايفتضـح فى البيت كله أمر الهدية قبل موعدها ، وقد يساء فهمها فيظن انها بمثابة أجر عن دروس عام كامل تلقيتها عليه مع « ساشا »وذلك أمر لم يجل لى بخاطر ،

لانني لا أريد قضاء ذلك الدين ، استبقاء ليده على ، فالايادى دين ثقيل ، ولكنها اذا كانت ممن نحب كانت اعز مايحرص الانسان عليه وآنس ما يأنس اليه ٠

ووجدت لى مخرجا آخر الامر من هذا المأزق ، فقد تذكرت ان من الوراقين من يبيع الكتب المستعملة ، وفيها كتب تكاد تكون جديدة ، بثمن بخس دراهم معدودات ٠ فلما كان الغد خرجت لاشترى لامى بعض حوائجها ومررت بدكاكين أولئك الوراقين ومعى طاهيتنا « ماترينا »

واسعدنى الحظ فعثرت دون بحث طويل على مجموعة بوكشين مجلدة تجليدا فاخرا ، فاذا به يطلب ثمنا لها سبعين روبلا ، جعلت تتضاءل بالمساومة حتى هبطت الى خمسة وثلاثين روبلا ، تزيد على روبلاتى الثلاثين بمقدار خمسة روبلات ، فحرت ماذا افعل ، وكدت ابكى قهرا ، والرجل لايلين ولا يتزحزح ٠٠٠ والطاهية العجوز تضرب كفا بكف لما ترى من جنتى المباغتة باقتناء الكتب ٠٠

وهممت ان انصرف قانطة حسرى ، لولا اننى رأيت فى هذه اللحظة رجلا لم يجل بخاطرى ان أراه فى ذلك المكان قط ، هو بوكروفسكى الشيخ ، ومن حوله خمسة وراقين يتنازعونه العروض وهو حائر لايدرى ايها يأخذ وايها يدع ٠٠ فما أحسبه يدرى عن تلك السلع الادبية شيئا ، فناديته ، فخف الى مسرورا بلقائى وقال لى انه بسبيل شراء كتب يهديها الى ولده فى عيد ميلاده ٠٠ وكانت ميزانية تلك الهدية لاتعدو ستة روبلات ، فقنع لذلك بالسؤال عن قيمة الكتب الصغيرة الحجم ، أما الكتب الضخام الجسام فلم يجرؤ على السؤال عنها وان ظل يرمقها بنظرات الحسد والكمد والاشتهاء ! ثم رأيت دمعة تترقرق فى عينيه وتنساب على خده

المتغضن فى صمت ، فسحبته من يده وقلت له ما انا بصدده ، وطلبت منه روبلات خمسة استكمل بها ثمن اعمال بوكشين الكاملة فى احد عشر جزءا جميلة التجليد ، لنقدمها هدية مشتركة بيننا الى « بيتنكا » ، فكاد يجن جنون الرجل من شدة الفرح ، وأدى المبلغ وحمل الكتب فى خفة الشباب وانطلق بها الى بيته ، واعدا ان يأتينى بها غدا فى الخفاء

فلما كان الغد دخل علينا الشيخ ، ثم همس فى أذنى انه استودع الكتب « ماترينا » لتحفظها فى المطبخ الى الوقت المعلوم ٠ ثم أفاض فى الحديث عن هديتنا وكيف نقدمها ، وكأنه فى تصوراته تلك مراهق يحلم بوصل عروس احلامه اللعوب ! فما أكثر ماراجع التفصيلات وعدل منها مرة بعد مرة ،وانا اصغى اليه صامتة مستمتعة بنشوته الابوية الحانية ٠٠ واذا بذلك كله يتلاشى على حين غرة ، لترتسم على معارف وجهه كآبة شديدة ، وسكت لحظة ثم قال :

ــ اسمعى يابربارة الكسيفنا. خذى انت عشرة اجزاء فقدميها اليه هدية منك مستقلة ، اما انا فسأقدم اليه الجزء الحادى عشر هدية مستقلة منى ٠ وبذلك يهديه كل منا شيئا على حدة ٠

ــ ولكن لماذا عدلت عن مشاركتى فى هدية واحدة على الشيوع بيننا ؟ أليس ذلك أجمل وأولى ؟

ــ كلا يابربارة . فأنا رجل كثيرا ما اضل عن الطريق السوى فيلحانى باتينكا ويوبخنى ويعظنى ولكنى رجل ضعيف امام الغواية، وقد تصطلح على الهموم مما تصبه امرأتى على رأسى ، ويتآمر البردمع الهموم فيدفعان بى الى حان أراه فى طريقى وكأنه يفتح دراعيه ويناديني نداء حوريات الماء التى تفتن سامعها فلا يستطيع لها دفعا ، فاشرب حتى أثمل ٠٠ فأحببت بتقديم هذا الجزء هدية

مستقلة منى ان اقيم له الدليل على استقامتى ، فلولا اننى ادخرت دريهماتى ولم انفقها فى حبائل الشيطان لما استطعت تدبير ثمنها وسيدرك باتينكا اننى ما فعلت ذلك الا حبا له واستجلابا لرضاه

فشعرت بشفقة شديدة على هذا الشيخ المسكين الذى ردته شقوته الى سذاجة الطفولة ، وقلت له :

ـ قدم له أنت الاجزاء الاحد عشر جميعا يازكريا بتروفتش !

ـ كلها ؟ كيف هذا ؟ أأقدمها على أنها هدية منى أنا وحدى ؟

ـ طبعا ..

فسكت لحظة ثم قال فى صوت كأنه صوت حالم ينطق وهو غاف :

ـ كم يكون ذلك جميلا ! ولكن ماذا تقدمين أنت يابربارة ؟

ـ يازكريا بتروفتش . ان هديتى ان اراك سعيدا بما اهديت الى ولدك ، وان ارى ولدك سعيدا بما أهداه ابوه . ويكفينى ان أسعد فى قرارة نفسى بأن هذه السعادة التى غمرتكما قد قدمتها وصنعتها يدى فى الخفاء !

فاقتنع بتلك الحجة ، ومكث عندنا ساعتين لا يستقر فى مكان من فرط الفرح والانتعاش ، وكأنه طفل صغير وعده ابوه بنزهة فى حديقة الحيوان ، فهو يداعب ساشا وكأنه من لداتها ، ويتغنى بما يعرفه من الاناشيد ، ثم يميل فوقى فيقبلنى خلسة ، او يقرص ذراعى . فما رأيت فى حياتى أحدا استخفه الفرح كما استخف ذلك الشيخ يومنا هذا .

فلما حل اليوم الموعود حضر الى بيتنا فى تمام الحادية عشرة ، عقيب انتهاء الصلاة فى الكنيسة نظيف الهندام حسن الزينة . فدخل علينا وفى يديه لفافتان من الكتب ، فوجدنا مجتمعين عند « انا فيودروفنا » لاحتساء القهوة على عادتنا يوم الاحد .

فبدأ بالكلام عن بوشكين ، فذكرانه شاعر من خيرمن نظم القوافى باللسان الروسى ، ثم تلعثم وارتج عليه فلم يدر كيف ينتقل من تلك المقدمة الادبية الى صلب خطبته ، فترك محاولة التمهيد ودخل فى الموضوع منوها بفضائل الاستقامة ، وان البغى يحيق بأهله ، وضرب لذلك الامثال مثنى وثلاث ورباع ، ثم اختتم مقالته بأنه تاب واناب وترك الضلالات والمفاسد منذ حين ، واستجاب لرغبة ولده المحبوب فصار من القوم الصالحين ..

فهو لايحتسى الخمر ولا يتشهاها فأفاء ذلك عليه صحة وطمأنينة نفس ، وافاده يسرا فى المال بعدعسرة واتاح له ان يهدى ولده الحبيب تلك المجلدات الحسان بما ادخره فى زمن توبته الاخير ..

وقد وجدت عناء شديدا ، فى مغالبة ضحكى اول الحديث ثم فى مغالبة دمعى فى أخراه ،فماأبرعه فى الكذب حين يقتضى الحال منه أن يكذب ، ولكن باعث الكذب شعور جميل يلمس كل قلب للرحمة فيه موضع وللحنان عنده معنى ..

وحمل الشيخ هديته الى حجرة ولده ، فوضعها على رف المكتبة. ثم دعوناه الى الغداء معنا فقبل الدعوة جذلان ، وقضى معنا سحابة النهار فى سعادة غمرتنا جميعا بأشعتها الدافئة .

واحسب بوكروفسكى قد ادرك الحقيقة لاول وهلة ، فقد كان دائم اللطف والرعاية لى ، وكانت فى عينيه ومضات رقاق . وما اكثر ماتلمس الفرصة كى يحدثنى على انفراد ، ولكنى كنت افوت عليه مايريد ، رائغة منه روغان التدلل والانتشاء بأفاويق السعادة التى حفل بها يومنا الفريد كأنه الغرة فى جبين الدهر ..

لقد كان يومى ذاك اسعد ايامى فى سنوات اربع من حياة طالما خيمت عليها ظلمة الشقاء ..

رياح الخريف

لقد سعدت سحابة نهار أقصى مايسعد به أبناء الفناء . ولكن سعادات دنيانا « سحائب صيف عن قريب تقشع » ..

مضت أيام الهناء المشرقات ، وحل وشيكا شبح الكآبة الذى أراد الله أن يرين على أيامى بعدذلك ، حتى وقتنا هذا ..

وكأنما استشعر القلم فى يدى انه لم يبق أمامه من كلام يسطره الا مايقطر حزنا ويثير اللوعة والحسرات .. فغدا ثقيل الحركة ، بطىء الخطو ، كالمشفق مما سيخطه فى صفحة القرطاس .

لقد هبت رياح الخريف الباردة الهوجاء فبددت دفء أيامى وقوضت صروح أحلامى ، كأنها بناء من الرمال ، فاذا بها ذرات فى قبضة الهواء ، وهباء ضائع فى خلاء ..

وكانت فاتحة تلك الاحزان علة بوكروفسكى التى ألزمته الفراش حينا ، ثم أسكنته رمسه الى يوم يبعثون .

فقد قضى بوكروفسكى أسابيع تباعا يبحث عن عمل ثابت ، فلم يجد الا وظائف التدريس وأعمال الدواوين ، وهى كلها مما لاتسمح له صحته الواهنة أن يزاولها .. فقد كان بوكروفسكى مصابا بذات الصدر منذ سنوات ..

وأضناه هذا البحث الدائب عن العمل ، ولكنه لم يلق الى ضعف صحته بالا ، حتى أقبل الخريف ، وليس لديه مايكفل له الدفء الواجب فى روحاته وغدواته . وصار أيسر الماء يجد من نعليه الباليين منفذا الى قدميه .. وهو لايكترث لشىء من هذا فى سبيل الحصول على عمل وطيد .

له الله ! لقد كان ذلك المصدور الشاب متعلقا بالحياة كبير الآمال فى بقاء طويل .. ولكن الداء لم يترفق بآماله الكبار ، فألزمه فراشه ذات يوم فلم يبرحه بعدذلك أبدا الا فى صندوق مقفل ، الى حفرة فى الثرى ، فى أخريات اكتوبر ، ورياح الخريف الهوجاء

تصفر في الارض الخلاء كأنها عزيف الجن أو أنات ثاكل محزون .

لزم بوكروفسكي فراشه ، ولزمت أنا جواره لا أبرحه مدة رقاده وضناه ، فكم من ليلة قضيتها الى جانب سريره ساهرة العين ، مؤرقة الجفن ، واجفة الفؤاد .

ولم يكن كامل الوعي في جميع أحواله ، فما أكثر ما كان يهذي بكتبه وأوراقه ، وبالعمل الذي ينشده فلا يعطاه ، وبأبيه .. وبي أنا .. فعرفت من هذيانه ما لم أكن أعرف من خبايا حياته .

وكان من في البيت يرمونني أول الامر بنظرات العجب والانكار ، ولكني لم أغض الطرف ، فما كان فيما آتي شيء أخزى له أو أغضي ، فتركوني وشأني وسلموا بحقي في السهر على هذا المريض المنكود ..

وزادت وطأة العلة عليه يوما بعد يوم ، فصار لا يفيق من هذيانه ويثوب الى رشده الا لماما .. فنهاره أنين ، وليله فزع وهذر محموم ، يناجي ربه أو يناجي نفسه ، أو يتحسر على ما فاته من طلاب ، أو يندم على ما فرط منه من هفوات الشباب . وهو في نجواه لا يستقر من رعدة ، ولا يهدأ من تفزز ، فكأنه لديغ مشف على الهلاك . فكانت «آنا فيودروفنا» تضرع الى الله أن يرفع عنه هذا العذاب ويخلصه من نزعه الاليم فيضمه اليه ..

ودعونا الطبيب ذات مساء ، فقال ان المريض قد دنت نهايته ، وانه ملاق قضاءه المحتوم زهاء الصباح من غد . فقضى بوكروفسكي الوالد الشيخ تلك الليلة قائما في الردهة أمام باب ولده المحتضر ، وكان يدخل عليه في الحين بعد الحين ليلقي عليه نظرة جامدة .. فقد أذهل الجزع الشيخ وسلبه ذماء نشاطه وحيويته ، فهو متبلد الحس كالمعتوه لا يحير قولا ، ولا يملك نفعا ولا ضرا .. وانما هو

يسر الى نفسه كلاما لامعنى له ولااتصال بين أطرافه .. حتى لقد خيل الى أن الاب المسكين قدأصابته جنة أو مسة خبال .

وقبيل الفجر غلب التعب جسد الشيخ فنام على طريحة من الحشايا بسطت له فى الدهليز، فلماوافت الساعة الثامنة ،وبدأت غبرة الموت تسطو على محياولده أيقظته ليودعه الوداع الاخير .

وكان بوكروفسكى فى تلك اليقظة التى يهبها الله للذاهبين اليه من عباده ، فودعنا جميعا فردا فردا ..

فيا الهى ! ما كان أشقانى ، وماكان أشد فجيعتى حتى لكأن نصالا تعملها يد سفاح فى شغاف قلبى .. ولكنى مع هذا لم أجد فى عينى قطرة دمع أذرفها ،لعلها تطفىء بعض ماأجده من أوار الفراق ..

وخانه لسانه بعد حين ،فكان يحاول الكلام فيلتوى عليه الكلام، فيشير بيديه فلا أفهم مايريد ،فجعلت أقرب منه كل شىء فى الغرفة ، وأدنى منه كل انسان فى البيت ، ولكنه كان يهز رأسه سلبا .. حتى فهمت أخيرا ماكان يعنى .. ففتحت مصراعى النافذة ،وأزحت عنها الستار..

فالشاب المسكين المتعلق بالحياة ومايمثله كل جميل فيها كان يشتهى أن يلقى نظرة أخيرة على نور الشمس ، والافق البعيد ، والسماء المشرقة بأضواء الصباح؟

ولكن هيهات ! ان الدهر أبى عليه حتى هذا المطلب الاخير ، الزهيد .. فقد كانت السحب تغطى صفحة السماء ، وكانت على الارض عتمة قابضة ، وفى الجو قتام ينذر بالمطر ، ويغرى بالبكاء .. بكاء الناس ، وبكاء السماء ..

ورمقنى الفتى المحروم بنظرة تقطر أسى واكتئابا ، وهز رأسه فى اذعان وجيع ..

ثم مات ..

عندما يموت الفقراء

مات بوكروفسكى فى ضحوة النهار ، فنشطت «آنافيودروفنا» لتجهيزه ،حتى تغادر جثته بيتها فتتخلص من مصدر ضيق لو بقى هناك لاقض مضجعها • ومن عساه كان يهتم بالفتى الفقير ؟ أو الده المذهول المذهوب بلبه ؟

وماكان تجهيزه أمرا عسيرا : فان هو الا تابوت بسـيط من أرخص أنواع الخشب ، وعربة نقل اكترتها بأرخص ماوسعها أن تكتريها • ولم تنس أن تتعوض عن هذه النفقات بالاستيلاء على كتب الفقيد وجميـع ممتلكاته الشخصية ، وماأهونها • •

وقد اعترض الوالد المفجوع، فمخلفات ولده تذكارات مقدسة فى نظره ، ولكن اعتراضه لـم يجده فتيلا ، لولا انه ثار وأنشأ يصرخ ، فخافت «آنافيودروفنا» العاقبة ، وتركت له من المجلدات ماتشبث به كالمجنـون • فصار يملأ بهاقبعته البالية ،وجيوبه•

يا للأب المسكين ! لقد احتفظ بتلك الكتب فى جيوبه وفى قبعته ثلاثة أيام لايفارقها ، حتى وهو فى الكنيسة •• وماأحسب نفسا رأته يوم وفاة ولده الا ذهبت حسرة على هذا الشيخ المرزوء : فقد كان يروح ويجىء فى حركة لاتفتر ، فاغر الفم ، شارد النظرة كمن يسير فى حلم ، وله حـول التابوت تطويف لاهدف له ولا غاية ، فهو يحف بمثوى ولده لانه لايستطيع عنه حيالا ولا زيالا ، ويسوى منه مالايحتاج الى استواء، ويترفق بلمس خشب التـابوت ويربت عليـــه كأنه يحس منه الملاينة والحـدب • • أو يضىء الشموع ويقوم مااعوج منها بفعل الحرارة ، ويعيد ترتيبها حـول التابوت كى تكون أتم زينـة وأحسن نظاما • • ولم يكن فى الكنيسة أحد سوانا ، فقد عاق المرض أمى عن الحضور ، وأمـا « أنافيودروفنا »فأحنقها شجارها مع بوكروفسكى الشيخ وأحفظها عليه فبقيت مع أمى • • فكنـا ثلاثة فى الكنيسة بين يدى الله:

الجسد الذى يصلى عليه ،والوالد الثاكل ، وأنا ٠٠ فلما بدأت الصلاة الخافتة وأخذت اصداؤها ترن فى الكنيسة الخالية غامت فجاج نفسى ، ورانت عليها كآبة لاحد لها ، كأنها نذر المستقبل القاتم الذى كان ينتظرنى بضرباته الشداد وفواجعه التى تفتت الاكباد وتفرى الاجلاد ٠٠ ولقيت عنتا شديدا فى البقاء الى نهاية الصلاة المبتسرة التى كانت كل ماليت من الفقراء فى ذمة خدام الله ورعاة عهد الناصرى المولود فى مزود بقر ، والذى عاش بلا مأوى حيث للطيور أوكار وللضوارى كهوف وأوجار ٠٠

فلما أحكموا على التابوت غطاءه ، ودقوا فيه المسامير بدقات من المطرقة غير مترفقة بسكون البيعة وجلال الموت ، حملوه الى العربة ، فانطلق بها السائق لايلوى على شىء وصحبته راجلة الى نهاية الشارع الصغير ،

فما أن بلغنا هذا الموضع حتى ساط السائق جياده فغذت السير خببا ،وأخذت العربة تبتعد عنا ،فجرى الوالد المفجوع وراءها ماطاوعته ساقاه الضعيفتان وهو يجأر بالبكاء بأعلى صوته ، ونشيجه الثائر الحمم يترجع فى صدره ويتقطع مع اهتزازات جسمه وهو يعدو ٠

وسقطت قبعته من فوق رأسه، فلم يتلبث ليستعيدها ، بل تركها حيث هى على الارض واستأنف الجرى ،ولعله لم يحس بسقوطها ٠٠ وبلل المطر المنهمر رأسه العارى ، وأخذت الرياح القارسة العنيفة تهرأ وجهه ٠٠ فما أحس لذلك كله وقعا ، وهو يجرى كالمجنون حافا بالعربة عن يمين أو عن شمال ، باكيا بلا احتجاز ، والريح ترفع أطراف ثوبه وأذياله فكأنها أجنحة سود بسطها ملك من ملائكة العذاب فى وادى الحسرات من فجاج سقر ٠

وكانت الكتب تساقط من جيوبه وهو يجرى ، فلم يبق له منها الا سفر كان يتشبث به فى يديه تشبثا غير واع ٠٠ وكان هذا الموكب الصغير ، أصغر مواكب الموتى وأبسطها وأفقرها على الاطلاق ، كلما مر بأحد من الناس أثار اللوعة والاسى فى قلبه فرسم على صدره علامة الصليب

وعند منحنى الطريق لقيت الموكب سائلة عجوز كانت تستندى الاكف ، فما رأته حتى لحقت به وأنشأت تجرى بجوار الشيخ وراء العربة المسرعة ، التى لم تأخذ سائقها شفقة بهذا الاب الشيخ الذى هد العدو قواه ، فالراحة والمجاملة سلعة لايقوى على ثمنها الفقراء ٠٠ أما السائلة المعدمة فأدركت مبلغ مامنى به هذا الفقير من الشقاء ، فأسرعت تشاركه فى ثمالة الكأس دون أن تعرف من هو ٠٠ وماجدوى من هو ؟ لقد كفاها انه مسكين ، وانه يتلقى الرزء الفادح وحيدا فى الحياة ، لانه مثلها ٠٠ انسان فقير ٠

وغابت العربة عن نظرى ، فعدت الى البيت وارتميت على صدر أمى ، وقد استولى على يأس قاتل ٠٠ وأخذت أقبلها وأضمها الى صدرى ضما عنيفا ، كأنما لاحس اننى لست وحدى ، ثم وضعت رأسى على صدرها وبكيت بكاء طويلا ، وذراعاى حول عنقها ٠٠ كأنما لاصونها من الفقدان وأمنع عنها يد العفاء التى انتزعت منى صديق روحى ٠٠

ولكن هيهات ، هيهات ! فان ملك الموت الاسود كان يحوم حولها وينتهز الفرصة المواتية للانقضاض ٠ ٠ ٠

رباه ! ماأظلم أيامى ٠٠

عود على بدء

١١ يونية

من لى بشكرك يا مقار الكسيفتش على ما اتحت لى من الهناء بتلك الساعات التى قضيناها معا متنزهين فى أرباض المدينة وعلى شطآن نهر النيفا بين الماء والهواء والخضرة اليانعة ·· فما أبعد عهدى بتلك المناظر الحسان ·

لقد خيل لى أثناء مرضى اننى لن أرى الطريق مرة أخرى ، فأنظر كيف كان شعورى وأنا أنعم بالنزهة بين النور والزهر والماء إلنمير · · فلئن ذرفت دمعتين بين يديك أمس ، فلا عليك ، فما هما الا من دموع الفرح الذى فاضت به جوانحى ·· ومن الاسى أيضا يا صديقى فان سكون الاصيل ، وشمسه المائلة الى الغروب ، وهدوء الطبيعة الرحيبة الآفاق ، قد أثارت فى نفسى رواسب الاشجان ولا يثير الاشجان والاحزان مثل نقائضها من الافراح والمسرات ·

تالله كم كنت كريما يا صديقى ! · فقد شملتنى بحدبك وحنانك ، وطفقت ترنو الى عينى متعلقا بهما ، كأنما تريد أن تستشف مشاعرى · وما كنت أبدى اعجابى بشجرة عتيقة أو جدول رقراق ، أو طريق ملتو كالثعبان بين العشب المزهر ، الا امتلأت باعجابى بها زهوا ، كأنها ملك يمينك ، وكأنك رب الضيعة الذى يثلج صدره أن يطرى الناس بستانه الموروث ! ألا ما أطيب قلبك يا صديقى مقار ! ان طيبة قلبك خير ما فيك ، وهى علة تعلقى بك وحبى لك ·

والآن وداعا يا صديقى ، فقد تعبت من الكتابة ·· فبالامس ابتلت قدماى وأصابنى من ذلك برد يسير أحس له اليوم فى بدنى هزة · · وفيدورا مريضة أيضا ··

لا تنسني يا صديقي ، وتعال لزيارتي ما استطعت .

بربارة

١٢ يونية

يمامتي العزيزة بربارة ألكسيفنا !

لقد توقعت أن تأتيني منك قصيدة عصماء في وصف نزهتنا الرائعة ، فاذا صفحة قصيرة لاتنقع غلة الصادى .. ولكن عجبا! لقد جمعت فيها فأوعيت ، ولم تفتك شاردة من مناظر ذلك الريف الجميل . ولو حاولت ماحاولت لما كفتني صفحات وصفحات ، وهيهات ان أبلغ ما بلغته في سطور معدودات .

وقد أثلج صدرى ما أضفيته على من قلائد المديح ، وما ذكرته من طيبة قلبي وصفاء نفسي .. واني والله لكذلك !

واني مجيبك الآن الى ما سألتني مرارا من قصة حياتي . فقد دخلت الخدمة في سن السابعة عشرة ، وقضيت فيها حتى الآن ثلاثين سنة ،أفدت فيها تجربة ،ونضجت فيها سني ومشاعرى . ولكن القدر سخر لى من تطوعوا للدس لى والتهوين من قدرى ، مستغلين طيبتي وحبي للعزلة والاعتكاف ، فكل خطأ يقع من أحد يسندونه الى ظلما ، وهذه يا أختاه ضريبة الطيبة ومحبة السلام !

وكذلك بقيت كما كنت منذ ثلاثين سنة « نساخا » ، وكل ما هناك انني « نساخ أول » ،فخطي جميل ، وجميع أوراق سعادة المدير أنا الذى أكتبها بيدى . وهو كما ترين عمل ليس ذا بال ، وان كنت أراه حسنا غير مهين . ولكن الناس يلقبونني « بالفأر » لأنني أعيش دائما بين الاوراق ، وأدنيها من وجهي لضعف بصرى ..

لأكن اذن فأرا ، فأى ضير في شبه الناس بالفيران ، أليس الفأر

مما خلق الله فى الدنيا لحكمة يعلمها سبحانه ؟

يؤسفني انني اندفعت هذا الاندفاع فى الحديث عن نفسي .. فعفوا يا يمامتي ، وعذرى انك مصدر عزائى الوحيد فى الحياة ، فاليك أتجه بأحزانى ملتمسا سلوتى عند قلبك الكبير .

سأزورك قريبا يا عزيزتى ، وسأحمل اليك كتابا تتسلين بقراءته أما الآن فوداعا

صديقك المخلص

مقار ديوفشكين

٢٠ يونية

عزيزى السيد مقار الكسيفتش

أكتب اليك على عجلة من أمرى ، فلدى عمل يجب أن انتهى منه اليوم . وقد سمعت من « فيدورا » بصفقة لم أحب أن تفوتك بحال : فثمت كسوة موظف كاملة ، فى حالة جيدة جدا معروضة للبيع بثمن معقول للغاية .. فلا تقل انك لاتملك شراءها، فقد قلت لى مرارا انك تدخر شيئا للطوارىء . وليس الشح مستحبا يا صديقى الى الدرجة التى تضن فيها على نفسك بزى لائق . ألا تنظر الى صورتك فى المرآة؟ ألا ترى كيف خلقت حلتك ونصل لونها ، وصارت للرقع فيها صولة وجولة ، حتى كاثرت فى مساحتها نسيجها الاصيل !ولست أصدق أن لديك كسوة أخرى جديدة ، وان كنت تكرر على مسمعى هذا الزعم فى كل مناسبة . فأتوسل اليك أن تشترى هذه الحلة يا صديقى ، من أجل خاطرى .

ثم ما هذا القماش الذى أهدتنيه ؟ انه قماش غالى الثمن ولاشك ، وما أراك الا تكلف نفسك رهقا بما تغمرنى به من الالطاف ، وما أكلفك فى نزهتى وعلاجى .. وما كنت بحاجة الى هذا القماش الفاخر فى الوقت الحاضر . فلماذا اشتريته ؟ انى اثقة انك تحبنى ، وليس عندى فى هذا شك ، وانه ليؤلمنى أن

تحسبنى بحاجة الى ما يذكرنى حبك لى ، فأتوسل اليك أن تكف عن هذه الخطة يا عزيزى مقار

لقد طلبت منى أن أتم كتابة مذكراتى التى قرأت طرفا منها ، ولكنى وجدت ذلك عسيرا أليما ، فما حدث لى بعد وفاة أمى شديد الوقع على نفسى ، والجراح القريبة العهد وشيكا ما تنتكىء ، والنسيان - لو أطقته - مطلبى فكيف أسعى الى تجديدها بالذكر والتدوين ؟

لقد حدثتك فى آخر مقابلة لنا عن « آنا فيودروفنا » وما ترمينى به من نكران جميلها وجحود أياديها ، وتنكر ما أتهمها به من تواطئها مع السيد « بيكو » على الايقاع بى بين براثنه . وتلح على أن أعود الى الاقامة فى بيتها ، على وعد منها ان تحمل السيد بيكوف على اصلاح خطئه ، بل جنايته التى جناها على أنا اليتيمة التى ليس لها فى الحياة معين .. فيهبنى صداقا طيبا - كما وهب أم بوكروفسكى من قبل - كى أجد من يتزوجنى طمعا فى ذلك الصداق !

ولكنى أرفض هذا العرض ، وأوثر البقاء حيث أنا الآن ، ناعمة بصداقتك ، وبصحبة « فيدورا » التى يذكرنى ولاؤها مرضعتى العجوز ، طيب الله ثراها .. وليس لتقولات الناس عندى أدنى اعتبار ، فانت قريبى - بعيدة ما بعدت صلة هذه القرابة - ولست أريد شيئا سوى هدوء البال ، وان يدعنى الناس وشأنى آمنة فى سربى .

بربارة

٢١ يونية

يمامتى وأختى العزيزة !

لست أدرى كيف أبدأ الكتابة اليك بما أريد أن آخوض فيه . ألا يروعك يا أختاه نمط معيشتنا الراهن ، أنا وانت ؟ فما عرفت فى طول حياتى أياما أسعد من أيامى هذه ، حتى لكأن الله قد من على بأسرة هانئة وبيت سعيد .. فانت يا فتاة طفلتى الصغيرة

المحبوبة ، ونور أيامى التى لم تعرف النور !

فأى عجب اذن أن أبعث اليك شيئا من قماش أعجبنى فأشتقت أن يكون عليك منه أربعة قمصان ؟ ثم لماذا تزعمين انك لست بحاجة اليه ؟ لقد علمت من « فيدورا » انك فى مسيس الحاجة الى قمصان ، وما دمت ابنتى فأى شىء أحب الى الاب المحب من قضاء حاجات فلذة كبده ؟ فكيف اذن تريدين حرمانى من تذوق هذه اللذة البريئة أيتها القاسية ؟ ..

أتعلمين اننى أخذت أشعر اننى أعيش حياتين وأحيا مرتين؟ فانت هناك ، وأنا هنا فى بيت يقابل بيتك .. فلى بيتان اذن وروحان .. فانت روحى يا بربارة لو تعلمين ..

لقد سمعت منك مرة انك بحاجة الى حرير ملون للتطريز .. وغدا سأشترى هذا الحرير ، فأنا أعرف أين يباع .. ودمت لصديقك المخلص

مقار ديوفشكين

٢٢ يونية

عزيزتى بربارة الكسيفنا .

لقد وقع يا صديقتى العزيزة فى بيتنا حادث مفجع جدير بأعمق عواطف الاسى والرثاء . فقد اختطفت يد الموت فى نحو الساعة الخامسة صباحا طفلا من أبناء مدام جورشكوف الثلاثة . ولا علم لى بما كان يشكو منه ، فعلم ذلك عند الله وحده .. وقد زرت بهذه المناسبة غرفة جورشكوف وآله ، فيالله يا أختاه ! ذلك حقا هو الفقر الموجع والشقاء المهين ! فالاسرة كلها تعيش فى هذه الحجرة الضيقة ، يفصل قسميها حاجز من قماش رقيق حفاظا على مقتضى الحياء .. وكانوا قد دبروا أمر التابوت ، فما رأيت أوجع للقلب من هذا التابوت البسيط ، الذى أعد لتطوى فيه نفس بلغت العاشرة من سنوات هذه الدنيا ، وبدأت تتفتح للحياة وتتطلع لافاويقها ، فنحيت الكأس

عن شفتيها وحيل بينها وبين نور النهار !

كان هذا الغلام معقد آمال أبويه المسكينين ، لقد كان ذكى الفؤاد ، عطوف القلب وديعا .. فانهار الامل فى مطلع هذا الصباح .

ولم تذرف الأم دمعة ، ولا أطلقت صرخة ، وانما هو الوجوم الشديد ، فى مسكنة وقنوط .. وأحسب المسكينة لم تخرج من حسابها ان موت ولدها قد حل جانبا من معضلتها اليومية الكبرى : وهى اطعام تلك الحواصل الزغب ، حواصل بنيها الجياع ..

أجل ، لقد أقفل الموت فما من الافواه الثلاثة .. ولكن بقى فمان اثنان ، ومازال الاشكال قائما ملحا .. فأى عذاب يا الهى يسامه هؤلاء الناس فى كل يوم من أيام حياتهم النكراء : فليس أوجع للقلوب من رؤية طفل يبكى جوعا ، وهذا الطفل فلذة كبد المرء ولحمه ودمه ، وهو لا يستطيع له شيئا ، ولا يدرى كيف يرد عنه غائلة الوحش الذى ينهش امعاءه الخاوية !

أما الاب الوالد ، فكان قابعا فى مقعده فى ثوبه الخلق ، ودموعه تنساب على صفحة خده فى صمت .. ولعل تلك الدموع لم تكن دموع الفجيعة ، فقد طبعت الفاقة المذلة عينيه بطابع دامع على الدوام ..

وأما ابنته التى لا تجاوز السادسة فكانت متكئة فى وقفتها على التابوت ، تنظر الى أمام دون أن تنبس ببنت شفة .. وقد استغرقها تفكير حزين .

رباه ! شد ما أكره أن يصمت الاطفال ويستغرقوا فى التفكير قبل الاوان .. فما الطفولة الا لعب وانطلاق ، أما الكآبة يا الهى ففظيع جدا أن يرمى بها الاطفال !

لقد عرضت عليها ربة الدار قطعة من الحلوى ، فلفظتها في صمت وهدوء ، كأنها شيخ فان عافت نفسه طعوم الحياة وحلاوتها المشتهاة .

ان هذا فظيع .. فظيع جدا يا أختاه

مقار ديوفشكين

مفترق الطرق

٢٧ يونيه

عزيزى السيد مقار

تؤكد لى فيدورا أن فى وسعى أن أحصل على عمل طيب فى اسرة فاضلة ، أقوم على تربية أطفالها الصغار ، فليس فى عمل القهرمانة عار . فما رأيك أنت يا صديقى ؟ أأقدم أم أحجم ؟

ان هذا العمل سيرفع عنك عبء كفالتى ، وهو عبء أراه ثقيلا أود من كل قلبى لو تخففت منه . ولكن قلبى لا يطاوعنى على الاطمئنان الى الحياة فى بيت غريب بين قوم غرباء ... وأنا اخشى الغرباء ، فأول ماسيعنون به هو سؤالى عن ماضى حياتى، وأنا لا أحب ان أكشف جراح قلبى لكل انسان .. ثم أنت تعرفنى نفورا لا آنس الى الناس فى يسر ، ولست أحب فراق من انست اليهم ، أو تبديل ما ألفته من نمط الحياة .. وان الى ما هو خير ...

يضاف الى ذلك ان هذه الاسرة تقطن حيا بعيدا عن هنا ، فأستشعر الوحشة لذلك البعد أيها الجار الصديق . وليس فى ظروفهم ما يشجع على الثقة بهم فقد استبدلوا بقهرمانتهم اخرى ثلاث مرات فى سنتين ، فقد يكونون من أهل الغطرسة أو الغلظة وسوء الطوية

انى حائرة يا صاحبى فأصدقنى النصيحة . ثم لماذا انقطعت عن زيارتى ؟ انى لم أعد أراك أو اجتمع بك الا فى قداس يوم الاحد، فيالك من معتزل نفور ! وانك فى هذا لصنوى .. ولكن تذكر انك من ذوى قرباى ، وان شعورى بالوحدة يثقل على صدرى . واشد ما يكون ذلك الشعور فى ساعات الغسق ، عندما تخرج فيدورا لشراء مايلزمنا من السوق ، فاذا بخيالات الماضى ترود حولى ، حتى ليخيل الى انى أراها رأى العيان ...

يا لله ما أشقانى بهذه الرؤى! وانها لتنال من صحتى وعافيتى

أيما منال .. وها هوذا السعال المقض قد انتابنى كرة أخرى ، حتى بت أشعر بدنو أجلى ..

فمن يا ترى سيعنى نفسه بتجهيزى ؟ من الذى سينتقى لى التابوت، ومن الذى سيدرجنى فى أثوابى ويزيننى للموت ؟ ومن الذى سيسير خلف نعشى ويصحبنى الى مقرى الاخير ؟ ومن سيبكينى ليرطب ثراى بدمعه ؟

هل كتب لى الله فى أزلى علمه أن أموت فى بيت غريب ، بين قوم غرباء ، فلا يقوم على رحلتى الاخيرة أحد ، ولا يؤنس ليلتى الاخيرة فى الدنيا مدمع حميم ؟

ألا تعسا للحياة ؟

بربارة

٢٨ يونيه

أختى الصغيرة بربارة !

ما هذا الهذر الذى يبيض فى رأسك الصغير ويفرخ ، فيشقى له قلبك فى غير مدعاة للجزع والعناء ؟ وكيف سولت لك نفسك أن تتوهمين المرض الوبيل فى عارض تافه ؟ وما حدا بك الى الاعتقاد بتداعى صحتك وذهاب عافيتك ؟ انى أراك على العكس، ريانة كالزهرة المونقة ، تنفح روحا وريحانا ، وأرى للعافية فى وجنتيك وأعطافك ماء يجرى ويكاد يتفجر بالقوة والشباب .

ثم ما هذه الاحلام البشعة يا أختاه ؟ اطرحيها من ذهنك ، واقتدى بى فى استدبار ما يحزن ويسبب تلك الكوابيس الثقال.

وما ذلك الحديث الذى تسوقينه عن العمل أجيرة فى بيت قوم غرباء ؟ انه لرأى سقيم وتفكير غير مستقيم ... فأستحلفك ألا تفكرى فى شىء من هذا القبيل يا حياتى ، فماذا أفعل من بعدك؟ اننى قمين أن أموت كمدا ، كما يموت السمك اذا أخرج من الماء

وماذا ينقصك فى حياتك الراهنة ؟ وأى شىء يسخطك عليها وينفرك منها ؟ ابقى حيث أنت ناعمة البال ، ولا تكلفى نفسك

مشقة التفكير فى شىء ، وسآتيك بكتب تقطعين بقراءتها الوقت . وقد نخرج يوما للنزهة فى أرباض المدينة ، كما خرجنا المرة السابقة وسآتى لزيارتك قريبا ، ولكن على أن تعدينى أولا ألا تعودى الى التفكير فى هجر جوارى الى مكان مجهول بين قوم غرباء .

وانى لك على الدوام

الصديق الوفى

مقار ديوفشكين

عزيزى مقار !

كلا يا صديقى . كلا ! لم يبق لى بهذه الحياة طاقة ولا عندى عليها صبر . فقد صح عندى أننى ارتكبت خطأ فادحا حين رفضت العمل الذى أتيح لى بعيدا عن هذا المحيط الذى نعيش فيه ... فقد كانت لذلك العمل مزية لا مرية فيها ، فهو يضمن لى على أقل القليل لقمة تقيم أودى وعيش كفاف لست أملك له اليوم ضمانا بأى وجه من الوجوه ... وكنت قمينة أن أروض نفسى على وحشة الغربة، وأن أحملها على ملاينة الناس ومداراتهم. ولعل هذا كان أجدى على من الانطواء السخيف على نفسى ..

وهل ترانى ياصديقى لا أشعر بما أكلف من يحبوننى من المشقة والنفقة ؟ أأجهل أن « فيدورا » العجوز تنهض قبل مشرق الشمس كى تغسل ثيابى ، وتخدمنى ، وأنا عاجزة عن خدمة نفسى بما يشغلنى من التطريز أو بنوبات المرض ؟ وهل أجهل أنك تحمل نفسك ما لا تطيق من النفقات فى سبيلى ؟ واذا كان لديك الآن شىء من المال لأنك كوفئت مكافأة استثنائية كما قلت لى ، فماذا تراك فاعلا حين ينضب ذلك المعين الموقوت ... وأنا معتلة الصحة ، لا تفرغ لى حاجة الى دواء أو كساء ؟..

لقد آن لمرضعتى العجوز أن تستريح ، وآن لك أنت أيضا يا صديقى أن تستريح من هذا العناء .. وليس لكما من سبيل

الى الخلاص سوى أن التحق بالعمل فى بيت كريم ..

فلماذا تصر على استبقائى ؟ ما جدواى عليك يا صاحبى العزيز ؟ ليس فى لك نفع ، فأنا لا أحسن الا التعلق بقلبك النبيل ، ولك عندى محبة لا مزيد عليها . ولكن أى طائل تحت هذا لك يا صديقى ؟

فكر فى الامر ، ولا تبطىء على بقرارك الاخير ..

المخلصة الودود

برباره

أول يوليه

هذر وهراء ما تقولين يا فارينكا ! ما هذه الخواطر السوداء النكراء التى عششت فى رأسك يا أختاه ؟

أنت جاهلة يا فارينكا بحياة الناس ، وليست لك خبرة بما فيها من متاعب ومشاق ... فأنت لا تفقهين معنى الاقامة بين قوم غرباء ، لا يعنيهم أمرك ، وانما يعنيهم منك أمر أنفسهم . أما أنا فأعرف تلك الحياة يا فارينكا ، فقد أكلت من خبز الغرباء ، فوجدته علقما وصابا ، ولم أجد فيه شبعا من جوع ، ولا راحة من تعب ، ولا رحمة من عذاب !

ما الذى ينقصك يا عزيزتى فى حياتك الراهنة حتى صرت تضيقين بها كل هذا الضيق ؟ أهو ما تزعمين من ثقل عبئك على كاهل « فيدورا » وكاهلى ، وانه لا نفع فيك لنا ؟

أأنت لا نفع فيك لنا ؟ ولولاك لما كان لنا بحياتنا انتفاع .. فأى نفع لى أنا سوى أن أكون ذا نفع لك يا يمامتى الحبيبة ؟

هذا هو السؤال الذى كان ينبغى أن تسألى نفسك اياه الا ما أقساك يا فارينكا .. أتراك تستعجلين ساعة يحملنى فيها الحاملون على ظهرى الى مقبرة فى ظاهر المدينة .. فيرمى الناس وراء نعشى بحفنة من التراب فى حفرتى الباردة ، ثم

يتركوننى فيها وحيدا ،ويعودون الى حياتهم دونى ؟ لكأنى بك بهجرانى تستعجلين لى وحشة القبر أفرد فيه ودونى جندل وصفائح ... فحياتى بدونك يا فارينكا موحشة كالقبر ، قاسية كالموت ...

فأستحلفك بكل عزيز ومقدس يا فارينكا ألا تجرعينى هذه الكأس ، وأن تحولى عن شفتى مرارتها ... فانها أقسى من احتمال قلبى الكسير ، الذى تركت فيه أثارها الايام ، وملأت صفحته بالندوب ...

ارحمى تعلقى بك يا أملى الفريد، وارحمى نفسك أيضا ياأختاه من قسوة الغرباء على قلبك الرقيق ...

فانك ان ترحمى قلبى ، يرحمك الله ويجزينك خير مايجزى أهل المروءة والاحسان .

صديقك المخلص الوداد

مقار ديوفشكين

عزيزى السيد مقار !

لقد باعت « فيدورا » الحرير الذى طرزته بيدى بخمسة عشر روبلا، أعطيتها منها ثلاثة ففرحت بها فرحا عظيما ..

وانى أكتب اليك على عجل ،لأننى أريد أن أحيك لك صدارا من نسيج جميل أصفر اللون فيه زركشة صغيرة بيضاء تمثل أفانين من الزهر ، سيعجبك كثيرا .

أرسل اليك مع هذه الرقعة كتابا فيه مجموعة من القصص، أوصيك أن تقرأ منها على الخصوص قصة المعطف للكاتب « جوجول »

ألا تزال مصرا على اصطحابى الى مسرح التمثيل ؟ أليس هذا بذخا باهظ التكاليف ؟..ان فيدورا تردد على سمعى فى الايام الاخيرة انك تنفق أكثر من دخلك ، وهذا رأيى أيضا ، فما

أكثر ما أنفقت على فى غير موجب.. فاحذر يا عزيزى أن يصيبك من ذلك البسط فى النفقة مايضيرك ..

لقد نقلت الى فيدورا ما تناهى الى سمعها من خلاف نشب بينك وبين ربة الدار ، لتأخرك فى سداد أجر سكنك.. فأقلقنى هذا الخبر ، وعسى ألا يكون صحيحا ..

وداعا يا صديقى .. وليتك ترجع عن دعوتى الى مشاهدة التمثيل ..

بربارة

ملحظ : لقد خطر لى خاطر أحببت أن أستطلع رأيك فيه : ألا يكون جميلا أن ارتدى - اذا ذهبت معك الى مسرح التمثيل - قبعتى الجديدة ، وشالى الاسود ؟ أترى ذلك يزيننى ؟

٧ يوليه

عزيزتى بربارة

... أصل ما انقطع من حديثى اليك بالامس .

أجل يا أختاه ، لقد عرفت فيما مضى من أيام شبابى ما تنطوى عليه كلمة النزق أو الضلالة من معنى ، حين أغرمت بتلك الممثلة الفاتنة . وقد لا يكون هذا وحده دليلا على خبالى وسوء رأيى ... وانما الدليل على ذلك أكبر الدليل هو اننى لم أر هذه الممثلة قبل افتتانى بها الا مرة واحدة ، وهى على خشبة المسرح

وأنكى من هذا اننى أحببتها حتى قبل أن أراها تلك المرة الفذة . فقد كنت أساكن خمسة شبان من الطلاب المتهوسين ، لم تكن تفوتهم رواية من رواياتها فاذا عادوا الى البيت آخر الليل لم يتركوا لى فرصة للنوم ، لكثرة ما يتحدثون فى حماسة عن معبودتهم الحسناء . فكلهم كان عاشقا مدنفا على البعد بها ، فالحب كخلائق الناس جميعا يعدى ، فانتقل حبها الى قلبى

الخلى . وذهبت معهم الى مسرحها ذات ليلة ، فخرجت متيما لا أملك مقاد لبى .. فقد كان صوتها عذب الجرس صافيا كأنه غناء البلبل وعدت الى مثواى وكأننى أعيش فى حلم .

وتحسست جيوبى جميعا واحدا واحدا ، فلم أعثر فيها الا على روبل من فضة ، هو كل ما أملك الى أن أقبض راتبى بعد عشرة أيام طوال . فما تظنيننى قد فعلت بذلك الروبل الفرد ؟ لقد بكرت من غدى الى حانوت للعطور الباريسية ، فاشتريت لها عطرا وصابونا معطرا ، ورحت أذرع الطريق تحت نوافذ بيت معبودتى الغافلة ..

وانى لأعجب من نفسى اليوم لماذا اشتريت ذلك العطر ، وذلك الصابون ، فلم اجترىء على اهدائهما الى معشوقتى .. ولكن كل ما أعلمه انى بقيت شهرا ونصف شهر لا أمارس شيئا من مهام الحياة وأمورها سوى تعقبها أينما ذهبت فى عربة اكتريها ، حتى ساءت أحوالى ..

وأخيرا يا يمامتى ، وبغير مقدمات ، طار حبها عن قلبى ذات صباح ، كما حط عليه من قبل ذات مساء .. وارتفع عنى ما كان يرهقنى من سحر الساحرة الحسناء ...

وهذا يا عزيزتى ما ترديت فيه يوما من الرعونة ، ولكن هذا عهد مضى يا أختاه ، مع ما مضى من أيام الشباب .

مقار ديوفشكين

زعازع الأنواء

٢٧ يولية :

عزيزى السيد مقار :

لم تعد براهينك تقنعنى ياصديقى ، وبت أرانى مخطئة فى رفض ما عرض على من أعمال شريفة . . ولا سيما بعد ان أصبحت تتعلل لانقطاعك عنى بأن طبيعة حبك لى تفرض عليك تلك القطيعة . . وانما هو خوفك أن أتبين الحقيقة وما صرت اليه من ضيق شديد . .

لقد زعمت لى انك تنفق على فى مرضى وحوائجى من فيض مال كنت تدخره ، فاذا أنت لم تكن ذا مال مدخر ، وانما دفعك عطفك وحنانك أن تقتر على نفسك كل التقتير فى سبيل رفاهتى ، وان ما زعمته مالا مدخراً كان مرتبك وقدتقاضيته عدة شهور سلفا ، فأنت الآن ولا مورد لك على الاطلاق . .

وقد تحققت أنك بعت كسوتك الرسمية أثناء مرضى لتدفع ثمن دوائى ، فبت خلق الثياب ، تطل أصابع قدميك من حذائك . فأزريت بنفسك ،وجوعتها فى سبيل استبقائى ونعمائى . .

الا انك قد خنت عهد صداقتنا بهذا الخداع الفاضح . . ! ان ذكرى ما استهلكت من هداياك من الحلوى والثياب والنزهات والدواء تنوش قلبى ندما على ماكلفتك من ضرورات الحياة . . والمسرات التى طالما اثلجت بها صدرى قد انقلبت مدعاة للغم والاسف . .

أفهل هبطت الى هذا الدرك من الزراية بنفسك يا مقار ، وانت الرجل الفاضل الذى أجمع الكافة على توقيره . . ؟ أهكذا تجعل من نفسك هزأة العالمين . . ؟

الا ما أهول ما جرته عليك صداقتى الرعناء . . ! وكيف

أغفر لنفسى ما سببته لك من سوء المنقلب .. ؟

الك يد بتصور ما انتابنى من الالم الشديد حين قالت لى فيدورا أن الشرطة عثروا بك ثملا مطروحا فى الشارع فى الهزيع الاخير من الليل .. ؟

لقد أصابنى الذهول لاول وهلة ، وان كنت قد توقعت أمرا خارقا ، لانك تغيبت عن بيتك أربعة ايام سويا .. ولكنى لم أكن أتوقع أن يعثر بك الشرطة مخمورا وأنت رجل الفضل والنبل والاستقامة التى تضرب بها الامثال ..

ماذا عسى أن يقول رؤساؤك لو عرفوا هذا الامر .. ؟ وهلا تذكرت ما طالما كررته على سمعى من شيوع أمر صداقتنا على ألسنة جيرانك اجمعين ، حتى سخروا من غرام كهل فى سنك بفتاة مثلى . . ؟ ماذا عساهم اذن قائلين بعد هذا الذى حدث لك .. ؟

ثم ما حكاية شجارك مع الضباط .. ؟ ولماذا تكتم عنى ما يحدث لك ويحزنك من الامور .. ؟

اكتب الى يا صديقى ولا تضن على بشىء من أخبارك اذا كنت لا تزال تقدر صداقة ..

المخلصة لك على الدوام

بربارة

٢٨ يولية :

عزيزتى الغالية بربارة . . !

أما وقد عاد كل شىء الى نصابه الآن ، فلست أرى مايمنعنى من مصارحتك بما كنت أخفى عنك ..

لقد تساءلت عما يخوض فيه الناس من شأننا ، ومن شأنى أنا على الخصوص ، وقد رأوا تغير حالى .. فاعلمى اذن أن قالة الناس فى شخصى لا تهمنى ، وان رؤسائى فى الديوان لا

علم لهم بشيء .. فلا يكربني الآن الا تخرص الناس عن صداقتنا ، والخوض فيها بما ليس منها ..

لقد كانت ربة البيت لا تكف عن الصياح والصخب ، حتى أديت اليها جزءا من متأخر الكراء - هو تلك الروبلات العشرة التي بعثت بها الى مشكورة - فخفت صوتها حتى صار زمجرة مكتومة لا آبه لها كثيرا ..

واما جيراني فلا يتعرضون لي بسوء .. وليس يهمني الا يحترموني ، فتقديرك انت هو كل ما أحرص عليه يا عزيزتي !

ولست أكتمك أن ديوني الكثيرة تثقل على صدري ، وان رثاثة ثيابي تخزيني .. ولكن هذا كله ليس شيئا مذكورا ، ما دمت انت بخير ، ولعل الله يحدث لنا فرجا ..

لقد بعثت الى امس بنصف روبل .. فما أشد ما آلمني هذا النصف روبل وحز في قلبي .. هل صرت حقا الى هذا الموقف النكد .. ؟ هل انقلبت الآية شر منقلب ، حتى بت أنا الذي أتلقى منك العون ، لا الذي يقدمه اليك كما ينبغي للولي الحميم .. ؟

وداعا يا يمامتي .. واتم الله عليك العافية ، وسأحدثك في خطاب آخر عما وقع لي مع الضباط ..

مقار ديوفشكين

٢٨ يولية

أختي فارينكا

لقد أثرت كوامن أشجاني بما قلت لي أيتها الاخت عن حقي في حبك ، وان ذلك الحب ليس من الرعونة والخبال في شيء . وهو كلام جميل .. ولكنه محض كلام .. أما قلبك يا ڤارينكا فما اراه يقول ما ينطق به لسانك ، واني من هذا على يقين .

وقد كان هذا الحب الذي أغالبه سببا في كل ما وقع بيني وبين الضباط من مهازل لا أحب ذكرها ، لولا الحاحك في السؤال

تعلمين يا ڤارينكا اني سلخت شهرا لا أجد ما أعيش به ،

فكنت أتسلل الى البيت تسللا واخفى وجهى عنك متعللا بكثرة العمل ، ولولا ان ربة البيت تربصت بى وفضحتنى لما علمت الحقيقة ..

وما كان صياحها ليزعجنى ، لو لم تعرف المرأة السليطة ـ ولا ادرى كيف عرفت ـ ان بينى وبينك صداقة ومودة ، فراحت تندد بنا ، وتنعتك على ملأ السكان بأقبح النعوت . . حتى استولى على الذهول لما سمعت ، ورحت أصم أذنى بأصابعى فزعا واستنكارا . . ولكن سائر السكان لم يصموا آذانهم بأيديهم كما فعلت . . بل فتحوها وأرهفوها ارهافا شديدا لتلقى تلك الاراجيف . حتى بت لا أدرى أين أخفى وجهى عن هؤلاء الناس الذين صدقوا ، لسوء دخيلتهم ، ماقيل لهم .. !

وزاد الطين بلة اننى سمعت بعد ذلك من « فيدورا » ان شخصا لا خلاق له زار حجرتك وأساء الى كرامتك وحيائك بما سولت له نفسه أن يطلبه اليك ويساومك فيه .. وانى لمدرك يا عزيزتى مدى ما ألمت له بسبب تلك الاهانة التى مست سويداءك . . فكان ذلك النبأ هو القشة التى قصمت ظهر البعير . . فتداعت مقاومتى تحت عبء الاحزان ، فان كل شىء كان هينا عندى ، الا أن يمسك سوء من قريب أو بعيد

وكأنما اصطلحت الطبيعة مع الناس على توهين عزيمتى .. فأمطرت السماء وانتشرت الوحول فى كل موضع ، ونفذ الماء من ثوبى الخلق وحذائى البالى . .

وفيما كنت متجها الى البيت فى تثاقل وانقباض ، قابلنى « اميل » الموظف السابق فى ديواننا ، فمشينا نتناقل أخبار متاعبنا برهة ، فهو رجل مسكين لا مورد له بعد فصله من الخدمة

وفى شقائه صدى لشقائى العظيم فى ذلك اليوم ..

وانتهى بنا المطاف الى حانة وماخور ..

ولكن أى ارب لك فى الاطلاع على صورة مفصلة للاوزار والحمآت التى تمرغ فيها صديقك المسكين فى ساعة ضيق وضعف ..

لقد دامت هذه الخطيئة ثلاثة أيام سويا ، دفعنى أميل فى نهايتها – وكنا نتذاكر همومنا بين كؤوس الخمر – الى الانتقام مما لحق بى من اهانتك والاساءة اليك والى شرفك . فاندفعت تحت سورة الخمار الى بيت ذلك الضابط السفيه ..

ولست اذكر الآن شيئا مما حدث على وجه التفصيل ، ولكنى أذكر فقط ان البيت كان غاصا بالناس ، ومعظمهم من الضباط ، واننى اندفعت فى الكلام طويلا ، الى أن القوا بى من أعلى الدرج ، فتدحرجت ، حتى بلغت أرض الشارع .. وعلى هذه الحال عثر بى الشرطة

ولكنى لم أكترث لهذا الذى وقع لى ، لان شيئا فى الحياة لا يهمنى بعد راحتك وسلامتك من السوء ، ومن ألسنة السوء

فاذا كنت قد أثمت ياصاحبتى ، فبسببك ، وبسبب حبى لك وتعلقى بشخصك الحبيب ، وحرصى على كمال احترامك ، وصيانة كرامتك بسياج متين .

وليك الحميم

مقار ديوفشكين

٢٩ يولية :

سيدى العزيز :

قرأت خطابيك اللذين كتبتهما الى أمس .. فاستولت على دهشة شديدة : فاما أن تكون قد كتمتنى جانبا كبيرا من

الحقيقة ، واما أن يكون اضطرابك النفسى أعنف كثيرا مما قدرت ..

فأتوسل اليك انتحضر لزيارتى اليوم .. تعال لنتغدى معا فى غير تكلف ، فان لى معك حديثا طويلا ، ولاسيما عن نمط حياتك وعلاقتك بربة البيت ،وهى أمور لاتخوض فيها فيما تكتب الىّ من الرسائل .. كأنماتريد أن تتجنب ذكرها عمدا .

وداعا يا صديقى ، واعلم أنهلابد من حضورك على كل حال ولعل الاوفق أن تتغدى معنا كل يوم ، ففيدورا طاهية ماهرة .

بربارة

أول أغسطس :

أختى بربارة العزيزة .. !

أراك سعيدة بما هيأته لك الفرصة السانحة من اظهار ما تنطوى عليه جوانحك من عرفان الجميل والعطف الكريم ؛ ولكن لا ادرى لماذا تلحين فى نبش هفواتى التى انحدرت اليها فى الماضى .. ؟

لقد هفوت وأثمت ، بيد أنى أتألم كثيرا حينما أسمع ذلك من بين شفتيك انت من دون الناس جميعا .. وأرجو ألا تغضبى لهذا الذى أقول لك ، فان قلبى يتمزق ألما ، والفقراء يا يمامتى قوم فيهم حساسية شديدة لما يمس كبرياءهم المرهفة . . وفيهم حذر وسوء ظن بالدنيا وبالناس . فالرجل منهم يصيخ السمع كلما رأى قوما يتهامسون ، خشية أن يكون موضوع همسهم وتغامزهم . واذا جاد عليه الناس بشىء من المال ، أجازوا لانفسهم أن يتطفلوا على حياته الخاصة ، فليس مايعطونه صدقة خالصة فى الواقع ، وانما هو أجر « الفرجة » على رجل فقير من عباد الله المساكين ..

فهل تعجبين بعد هذا ياأختاه لما يداخل الفقير منا من

التوجس والارتياب وسوء الظن بالناس ؟ فهو يحس كما لو كان أولئك المتخمون يهمون بتعرية جسده من كل ما يستره . فهل يلام على تمسكه بالحياء ، وبستر ما أمر الله ان يستر ؟ ؟

الا ان خلات الناس وآلامهم عورات لا يحل لاحد ان يطلع عليها .. وقد ظهرت سوأتى اليوم للناس ، فكدت اموت خجلا .. لقد تبينت أن كوعى كان يطل من كم سترتى البالى وأنا جالس الى مكتبى فى الديوان .. وان أزرارها كانت تتراقص مدلاة من خيوطها الواهية التى لا تكاد تمسكها ..

فلما عدت من الديوان ، وقصدت الى بيتك للغداء ، رأيت جميع سكان بيتنا فى النافذة ، يشيرون الى بأصابعهم هازئين ، وسمعت صاحبة البيت تنعتك بأعلى صوتها نعتا بذيئا .. ووصمتنى بالشيطان الذى يغرى فتاة ويدنس شرفها فى سبيل متاع شيخوخته الفانية .. فجعلت الدنيا تدور من حولى ، كأنما أعانى سكرات الحمى ، وقد أعيتنى الحيلة للخلاص من هذا المأزق ..

رباه .. ! أين أين المفر ؟ !

لقد ضقت ذرعا بكل شيء ، وكفرت بكل شيء ، ولست ارى لى مخرجا من هذا البلاء الشديد ..

مقار ديوفشكين

٢ اغسطس :

عزيزى السيد مقار ..

لا يحزبنك الامر ياصاحبى ، فما عقدة الا ولها فرجة مثل حل العقال .. وقد وفقت فيدورا الى كمية من الاعمال لى ولها ، سيأتينا منها أجر حسن ، عسى أن يقضى على كل أثر لضائقتنا الخانقة ..

لا تلق بالا الى تخرصات ربة الدار ، وتعال لزيارتنا وتناول

الطعام معنا ، فهو أجدى عليك واقصد لنفقتك ، والقصد أولى من القرض .. لان القرض تأجيل بلاء وليس حسم داء ..

وأوصيك الا تسترسل فى سوء الظن وتوهم المكائد والشماتة ، فان ذلك الوهم خليق أن يزيد نفسك اضطرابا ، من حيث تنشد الامن والسكينة ..

انى أنتظر حضورك اليوم ، فلا تتخلف ..

بربارة

٣ اغسطس :

ملاكى الرقيق بربارة .. !

أبادر بأن أزف اليك يا نور حياتى بشرى بارقة من الامل ، تراءت لى ، وان كنت قد نصحتنى فى خطابك أمس الا الجأ الى القروض ، لانها فى رايك ياملاكى دائرة خبيثة مفرغة لاتحل المعضلات ، وانما هى تؤجلها لتزيدها تعقيدا واستعصاء .

ان لى زميلا فى الديوان ، يجاور مكتبه مكتبى ، اسمه «اميليان ايفانوفتش » وهو مثلى من أقدم موظفى الديوان ، ولكنى كما تعلمين رجل منطو على نفسى ، فلم تزد العلائق بيننا على تبادل التحية والسلام ، وقد اقول له فى الحين بعد الحين ..

— اعطنى مبراتك يا عزيزى متفضلا مشكورا ..

فلديه مبراة من الصلب ليس كمثلها مبراة .. ولكن الصلة بيننا فى ثلاثين سنة لم تزد يوما على هذه المجاملات الرسمية ، وان كنت أشعر فى قرارة نفسى أنه يضمر لى الخير . وبالامس قرا فى وجهى علائم الهم والكدر فسألنى مابى ، فقلت له أسباب ضيقى ، اجمالا لاتفصيلا بطبيعة الحال . لان الشجاعة لم تواتنى على مصارحته بكل متاعبى الباهظة ، فقال لى اميليان :

— لماذا اذن لا تعقد قرضا تصلح به شأنك .. ؟ ان «بيير

بتروفتش » يقرضنى بفائدة معقولة فالجأ اليه ، فهو رجل طيب ..

فقلت فى نفسى : لعل هذا بشير الخلاص من ضيقى الراهن فأسدد دينى لربة البيت ، وأقدم لك شيئا من المعونة ، وأجدد ما خلق من ثيابى .. فقد صار ملبسى مدعاة للخزى المقيم .. فاذا غضضت الطرف عن نكات الرقعاء من الموظفين ولواذع تعريضاتهم وغمزهم ، فما يسعنى ان أغض الطرف عن مدير الديوان .. فقد يمر سعادته بمكتبى ويرى سوء مظهرى الذى لا يليق بكرامة مركزى فى الدولة ، والكرامة ولياقة السمت أهم شىء فى منظر مثل هؤلاء الرؤساء العظام .. ولا أحسبه سيقول شيئا ، ولكننى خليق أن أموت خجلا تحت وقع نظراته الناطقة بالاشمئزاز والاستياء ..

وكان هذا الخاطر وحده كافيا للقضاء على كل تردد ، فجمعت شجاعتى فى يدى ، وتوجهت الى مكتب « بيير بتروفتش » فوجدته مشغولا بالحديث مع شخص آخر ، فاقتربت منه ووقفت الى جواره من الجانب الآخر ، وجذبت طرف كمه فى لطف ، فالتفت نحوى ، فقلت له همسا اننى بحاجة الى ثلاثين روبلا ، ويبدو أنه لم يفهم مرادى لاول وهلة فشرحت له الامر ، فأنشأ يضحك ، ولم يجبنى بشىء .. فلما رأيت سكوته وصمته بعد أن ضحك ماشاء الله ان يضحك أعدت عليه الطلب ، فقال لى :

ـ ألديك رهن عينى ؟

ثم « غاص » فى اوراقه وكتاباته دون ان ينتظر منى جوابا على سؤاله ، غير ملق الى نظره ، فاضطربت وتضاءلت بعض الاضطراب وبعض التضاؤل ، وقلت بصوت مختلج :

ـ كلا يا بيير بتروفتش ، ليس عندى رهن ..

ثم أخذت أؤكد له اننى سأفى بدينى متى قبضت مرتبى ،

مقسما لهعلى ذلك بأغلظ الايمان ..

وناداه مناد فى هذه اللحظة فخرج ، وانتظرت حتى عاد الى مكتبه ، فجلس وانصرف الىبرى قلمه بعناية وكأنه لا يحس لى وجودا ، فأعدت الكرةعليه فى توسل ، فتصامم عن كلامى ، وكأنى لم أقل شيئا ، فبقيت واقفا بين يديه لحظة لا أدرى ماذا أصنع ، ثم عولت على اعادةالمحاولة على يأس من الفلاح ، فجذبت كمه مرة اخرى ، فلم يلتفت الى ، وانصرف الىالكتابة بعد ان نفخ آثار برى القلم عنأصابعه وثيابه ، فانصرفت : وما كان لى الا أن انصرف بعدهذا الذىجرى بيننا فىغير طائل

أرأيت يا أختاه ؟ أولاء هم الغرباء ، قوم كرام علىأنفسهم ، ونحن عليهم غير كرام .. فلايدرى الفقير منا كيف يخاطبهم أو يشعرهم بحاله أو يعطفهم عليه .. فنحن أهون عندهم من أن نحرك فيهم ساكنا أو نشغل لهم بالا ..

ولما عدت الى مكتبى وقصصت ما حدث على « اميليان » ضحك كثيرا ، وهزرأسه وسكت .. ثم راح يسرى عنى ويفتح أمامى أبواب الامل ، فهو مثلى رجل فقير ، ووعد بتزكينى عند صديق له يسكن حى « فيبورج » يقرض الناس بربا معقول ، وسأذهب اليه من غدى .. فما رايك يا أختاه .. ؟ الست على حق .. ؟ وهل من هذا السبيل بد او عنه مندوحة؟ فهذه ربةالبيت تتوعدنى بالطرد اذا لم أؤد لها حقها المتأخر وأجرها المطول ، وهى تأبى منذاليوم أن تقدم لى طعام العشاء نسيئة كما كانت تفعل من قبل واما نعلاى يا أختاه فحالهما شر حال . واما سترتى فقد كثرت فيها الخروق ، وطاح البلى بنصف أزرارها المعدنية الصفراء .. حتى ما أدرى كيف أواجه

نظرات رؤسائى لو رأوا كيف بت أبدو . . انها لتكونن اذن كارثة ليس عنها من محيص .

مقار ديوفشكين

٤ أغسطس :

عزيزى مقار

أستحلفك بحق الله عندك يامقار ان تدبر قدرا من المال على وجه الاستعجال ، كائنا ماكانت الوسيلة ..

وما كنت لاطلب اليك هذا الطلب ، أو استأديك العون وأنت فى هذه الظروف التى أعلمها علم اليقين ، لولا أننى ألفى نفسى فى موقف لا يطاق معه الصبر ولا تنفع فيه الحيلة .. فلا أرانى قادرة بعد الآن على التلبث فى هذا البيت الذى أسكنه بحال من الاحوال ..

تصور يا صديقى اننى حظيت اليوم بزيارة من رجل غريب لا أعرفه ، متقدم فى السن حتى ليكاد يحسب فى عداد الشيوخ ترصع صدره نياشين ذات عدد وبريق فأدهشتنى هذه الزيارة التى لم أعرف لها سببا . وكانت فيدورا فى السوق تشترى حاجاتنا ، فأنشأ الزائر المجهول يسألنى عن أحوال معاشى وشواغل حياتى ، ثم انتقل ـ قبل أن أجيبه على أسئلته ـ الى مكاشفتى بحقيقة شخصيته فاذا هو عم ذلك الضابط الذى زارنى يوما ليراودنى عن شرفى وأنحى على ابن أخيه الشاب باللائمة الشديدة ، واستنكر تشهيره بى فى الحى كله بما أثاره من فضيحة بسلوكه الشائن ، الذى أملاه عليه طيش الشباب ثم عرض على حمايته ، زاعما أنه يشعر نحوى بعطف أبوى وحنان والدى صادق يدفعانه الى رعايتى ومساعدتى . . فتخضب وجهى بحمرة الحياء ، وحرت فى تأويل ما يقول ، فلم

أعبر له عن شكرى ، فجذب يدى عنوة ، ثم داعب بأنامله العجاف ذقنى ، وهو يطرى سحر عينى ونضرة حسنى ! ! ثم صاح منتشيا حينما اكتشف أن لى فى وجنتى « غمازتين » وهم أن يقبلنى قهرا ، قبلة يزعمها من فيض الابوة العطوف

ودخلت فيدورا فى هذه اللحظة ، فاضطرب وتراجع ، وجعل يكرر فى تلعثم ظاهر انه يقدر وداعتى واستقامتى .. وانه يرجو ان أطمئن اليه وأثق به .. ثم انتحى بفيدورا جانبا وحاول أن يدس فى يدها شيئا من المال متعللا بتعلات عرجاء ، ولكن فيدورا أبت بطبيعة الحال أن تقبل منه شيئا ، فانصرف على وعد بتكرار الزيارة ، حاملا الى قرطا من الذهب أزين به أذنى الجميلتين ..

ولم ينس ان يوصينى قبل انصرافه بتغيير مسكنى ، فأنتقل الى مسكن آخر خير من هذا ولا يكلفنى أجرا .. ثم قال انه يعرف « آنا فيودروفنا » وانها ستأتى لزيارتى عما قريب ..

فما أن سمعت منه هذه العبارة الاخيرة ، حتى تكشفت لى الحقيقة بحذافيرها ، وادركت أن هذه القوادة قد عادت الى القاء شباكها حولى ، ولا حول لى .. فانفجر غيظى المكتوم ، وجعلت أنتفض وأسب الرجل وأصرخ طالبة اليه الخروج من بيتى ، فجرته فيدورا الى الباب جرا ..

ان هذه المرأة قد دبرت لنا هذا الشرك ، وما كان الرجل ليعرف طريقنا لولاها .. فلا تتخل عنى الآن ياصديقى بحق السماء وأخرجنى من هذا المأزق . اقترض .. اقترض مالا بأى شكل من الاشكال .. حتى ننتقل من هذا البيت الى موضع لا تعرف فيه « آنا فيودروفنا » مكانى . ولا يكفى لهذه النقلة أقل من خمسة وعشرين روبلا .. أتوسل اليك الا تحجم عن

شيء فى سبيل الحصول عليها . فلا تهولنك فائدة الربا ولو كانت أضعافا مضاعفة ، اقدم على اى شيء ، واقبل كل شرط يفرض عليك .. ولكن لا تتخل عنى ولا تخذلنى يا صديقى الوحيد واملى الفريد .»

بربارة

أين المفر ؟

٤ أغسطس

يماتي وعزيزتي العزيزة !

انى أترنح تحت هذه الضربات المباغتةالتى أحس بها تتواكب فوق رأسى ، فتسحق مقاومتى وتشل وجدانى وتمحق روحى .

ماأشقانى بالحياة بين هؤلاء الناس الذين تموج بهم المدينة الكبيرة ، متسكعين ، متطفلين ، شامتين ، لايفهمون الالم ، ولا يعرفون الرحمة . انهم ليدفعوننى الى اليأس . كلا . بل الى ماهو شر من اليأس : الى الجنون أو الانتحار ، أو الكفر والاستهتار .

ماأشقانى بما كتبت الى ،فانى لافضل الموت فى أبشع صوره على القصور عن معونتك ، وقدطلبت هذه المعونة فى ألم يفتت الاكباد ..

بل انى أشقى شقى ، حتى اذا وسعت طاقتى اسعافك بما تريدين من العون : فلو لبيت طلبك ، لكان فى ذلك بعدك عنى ، كما يحلق العصفور بجناحيه فى الفضاء فلاتصل اليه يد ولايقربه منك الا أن يعود اليك ، وأنت تريدين ذهابا لارجعة فيه ..

ولكن ماحيلة العصفور وقد اجتمعت على عشة البواشق والصقور ، تريد أن تهلكه وهو راقد فيه .

وتلك ياحياتى هى شقوتى المزدوجة وحيرتى الرائنة .. فلماذا تلقين بى فى هذه المحنة ؟ ولماذا تشقيننى وتشقين نفسك ، فانك لن تجدى فى البعد عنى الا الوحشة ، وانت كالاطفال لاغناء لك عن راع يسهر على صحتك الرقيقة والا اضررت بها بمافى طبعك من تهور وقلة اكتراث . وماأحسبك الا تنوين الانكباب فى حياتك على الحياكة والتطريز ، حتى تنوئى بذلك العمل الشاق .

فارينكا ! فارينكا ! أعدك أن أكون لك خير راع ومعين ، ولكن لاتتركى جوارى ياأختاه ! ودعى التفكير فى العمل ، فسأقوم أنا

بكل مايلزم لمعاشك : سأعمل فى نسخ المؤلفات ليلا ٠سأطرق أبواب المؤلفين وأحملهم على تكليفى بنسخ كتاباتهم حملا ، لانهم بحاجة الى نساخين من ذوى الخط الحسن ٠ أنا من هذا على يقين فلايداخلك فى ذلك شك ٠

وثقى أيضا اننى سأقترض من المال مايكفيك الى أن أجد هذا العمل الاضافى السخى، أتقولين فى خطابك اننى لاينبغى أن أتراجع أمام فداحة الربا ؟ ثقى اننى لن أتراجع أمام شىء مهما كان فى سبيل تدبير المال ، ولكن أستحلفك ألا تفارقينى والا مت كمدا ، فما حياتى بغير جوارك؟ أنت لى كالشمس للنبات والماء للحوت ٠ ٠٠

سأطلب أربعين روبلا قرضا أصلح به شأنك وشأنى ، وهو ليس بالمبلغ الكبير ٠ أترينه كثيرا ؟ أتظنين الحصول عليه يسيرا ؟ أترينني - فى نظرك - أوحى بالثقة ، بحيث يطمئن المرابى الى كلمتى ، فكلمتى هى الضمان الوحيد الذى أملك تقديمه لقاء هذه الروبلات الاربعين ٠٠ أعنى هل يدل منظرى وشكلى العام على اننى أهل للثقة ؟ حاولى ياملاكى أن تتذكرى أول لقاء لنا وخبرينى هل تدل النظرة الاولى الى على رجل يبشر بالخير ويستأهل الاحترام والتقدير ٠ ولا تكتمنى رأيك الحق ، فانى أرتعد فرقا من الفشل فى هذا المشروع ٠٠ حتى بات الوسواس لايفارقنى فى غدوى ورواحى ٠

وقد اعتزمت أن أخصص من هذه الروبلات الاربعين خمسة وعشرين روبلا لما يلزمك يافارينكا، واعطى خمسة أخرى لربة بيتى حتى أكف أذاها ، وأدبر شأنى المضطرب بما يتبقى منها ٠

والحق انه كان ينبغى أن أدفع الى ربة البيت أكثر من هذا المبلغ، لولا كثرة مايلزمنى لزوما عاجلا ملحا ، فلابد لى من حذاء

جديد يكلفنى روبلين على الاقل، فلست واثقا ان حذائى الحالى قادر على الصمود الى الغد! فالله وحده يعلم كيف سيتسنى لى الوصول غدا الى الديوان بهذا الحذاء المتداعى.. أما رباط العنق العتيق القذر فلا أظننى بحاجة الى شراء بديل عنه ، مادمت قد وعدتنى بعمل رباط لى من بعض أثوابك القديمة . ولكن لاغنى لى عن شراء أزرار معدنية جديدة، بعد أن ضاع أكثر من نصف أزرار كسائى . . وانى لارتعد فرقا لمجرد التفكير فى احتمال وقوع نظر سعادة المدير العام على شخصى وقد أصبح بهذا القدر من الزراية والابتذال! ماذا عساه أن يقول عنى وأنا الرجل القديم العهد بالخدمة ، المشهور بالرزانة والاحتشام ؟ .. لن يقدر لى أن أسمع تعليقاته ، لاننى سأكون قدمت خزيا لمجرد نظره الى.

ويبقى ياملاكى بعد هذا ثلاثة روبلات، أعيش بها سائر الشهر، واشترى نصف رطل من الطباق ، فأنا ياحياتى لاأستطيع الحياة بدون تدخين .. وها قد انقضت تسعة أيام لم أرفع فيها غليونى الى فمى ..

انى ضعيف أمام عادة التدخين، وكان بوسعى أن أفكر فى شراء الطباق دون علمك ، ولكنى كنت خليقا أن آلم لهذا الخداع . .. أما يكفينى أن تكونى فى ضيق وعوز ، وأسرف أنا فى ارضاء ملذاتى التافهة .. حتى أضيف الى هذا الضعف وصمة الاختلاس ؟ . . لهذا ياحياتى حرصت على مصارحتك والاعتراف بين يديك بذلتى حتى لاينغص على تأنيب الضمير يقظتى ومنامى .

أواه ! انى لاجد نفسى الآن فى موقف لم أقف مثله من قبل ، فى كل مامر بى من ظروف الحياة وشدائدها . . فربة البيت تلاحقنى بازدرائها ، ولم يبق لى احترام فى نظر انسان . . . وصارت الضائقات والازمات والديون تنوشنى من كل جانب فى هذا البيت الملعون ..

أما في الديوان فالامر أدهى وأمر . فماتعودت من زملائي ولا سيما الشبان منهم كل عطف وتقدير ومودة ، قبل أن أصل الى درك بؤسى الراهن .. فغير غريب أن يتفاقم الامر الآن . لذلك صرت حريصا على أن أتسلل الى مكتبى تسلل اللص ، حتى لاتقع على هيئتى عين ماستطعت الى ذلك سبيلا ..

فياويلتى لو رفض المرابى اقراضى هذه الروبلات الاربعين! لاطاقة لى بالتفكير في هذه الكارثة ، ولهذا أوثر ألا أشغل ذهنى بها .. فلو وقع هذا الحادث الجلل ، لطوانى الردى قبل أن أجسر على العودة الى ماينتظرنى فى البيت من عذاب ونكاية ، والى ماينتظرني في عينيك من نظرات الالم والعتاب .

لقد أطلت عليك .. وانني ينبغى أن أحلق لحيتى ، فذلك أليق وأدعى للثقة والاحترام ..

رعاك الله ، ووفقنى ، والسلام

مقار ديوفشكين

٥ أغسطس

عزيزى العزيز مقار ..

ليتك لاتمتحن نفسك بكل هذا العذاب الذى تلوكه وتجتره مرة بعد مرة ، فلأنت أشد على نفسك من أحداث زمانك الشداد ..

هذه ثلاثون كوبكا أبعث اليك بها ، هى كل ماستطعت تدبيرها لتصلح بها شأنك الى غد . أما نحن ياصاحبى فلم يبق لدينا شيء ، وماأدرى ماذا نحن صانعتان غدا ، فليت غدا لاتشرق شمسه أيها الصديق !

الموقف دقيق نكد ، ولكن أى جدوى فى اجترار الهموم ؟ لقد حاولت فأخفقت ، فماذا كان فى وسعك بعد هذا ؟

ان فيدورا تؤكد لى أن الامر ليس كما تتصور من السوء

والضنك ، وهي تزعم أن بقاءنا حيث نحن أمر ممكن ، بل هي تذهب في زعمها الى التهرين من جدوى النقلة الى بيت آخر ،فان مثل « آنافيودروفنا » قيمنة أن تتعقبنا وتعرف مثوانا الجديد، فهي واسعة الحيلة قوية المراس ولكنى مازلت أرى بقائى فى هذا البيت غير لائق ولامستساغ ،ولولم أكن مكتئبة النفس لكتبت اليك عن هذا الامر فى شىء من الاسهاب .

ان لك يامقار لخلقا عجيبا حقا ! فما أشد اكتراثك لهموم الناس ، واهتمامك لآلامهم .. وتلك خلة توردك موارد الشقاء، وتجعلك على الدوام فى عذاب مقيم ..

انى أعيد الآن تلاوة خطاباتك جميعا ، فما أشد مايروعنى ماتبديه من العناية بشأنى والاهتمام لهمومى . . . حتى لتنسى أمر نفسك وخاص شأنك، فساءت حالك وبت فى موقف لامخرج لك منه الا بعناية من السماء تلحظك بها على غير انتظار ..

ولاشك عندى انه مامن انسان لايرى فيك طيبة القلب مصورة ماثلة . ولكنى أراك مفرطا فى الطيبة ، مسرفا فى النبل والاريحية . . فبعض هذا ياصديقى العزيز .

هذا نصح صديقة تخلص لك الود وتريد بك الخير . . وانى لك شاكرة ، ولاياديك عارفة ،وبفضلك مقرة معترفة .. بل ان احساسى بأفضالك يسبب لى حيرة شديدة، فلست أدرى كيف أجزيك احسانا باحسان ،وليست لى بذلك الجزاء يدان . .

فانظر أى ألم يحز فى قلبى وأنا أعلم الى أى مدى بلغت بك الآلام والمتاعب والازمات،وأننى أنا سبب هذا البلاء عن غير قصد . . ، فقد كنت ذا يسر ورفاهية ، فصرت بسببى الى الفاقة والدين الثقيل . وكنت ذا سمت وزينة ، فصرت بسببيل الى المهانة وسقوط الهيبة ..

لقدعنيت نفسك بأمري، فلم يكن لك هم الا أفــراحي وأتراحي واوجاعي وشجن ما غــبر من عمري وما حضر . فلو عنى كل انسان نفسه بشأن الغرباء عنه كما عنيت نفسك بشأني ،لكان خليقا أن يجر على نفسه كلاكل البلاء من حيث لا يحتسب ..

رباه ! كم خشيت عليــك أن يصيبك مكروه حين عرجت على بيتي بعد خروجك من الديوان لقد كنت شديد الشــحوب . ظاهر الجزع ، تكاد تتهالك من فرط الاعياء ... اشــفاقا على انا من الصدمة القاسية ، لانك لم توفق فيما حاولت من القرض فلما قلت لك انني غير آبهة ،وأخذت اضحك امعانا في اظهار استهانتي بالخطب ، سرى عنك من فورك .

فأتوسل اليك يا عزيزي ألا تروع نفسك من أجلي ، وثق أن كل شدة الى زوال ، وكل ضيق الى فرج ... فانه يستحيل على أي امرىء ان يعيش كما تعيش انت ، موزع النفس ، مقســم الفؤاد ، معنى بما يصيب سواك كان المصاب مصابك واشد وقعا

فثب الى الهدوء يا صديقي ،ولا تكترث لشاني الى هذا الحد الاليم

بربارة

٥ أغسطس :

يمامتي الصغيرة فارينكا !

الحمد لله انك قد تلقيت فشلي في الحصول على المال بهــذا التهوين ، فقد خشيت ان يقع عليك النبا موقعا سيئا ..واحمد الله كذلك لانك قــد عدلت عن هجر جواري الى مكان لا أراك منه حين امسي واصبح .

وقد شرح قلبي واثلج صدري ما جاء في رسالتك من تقدير جميل وفهم صائب لحقيقــة مشاعري نحوك ... وما لمسته في سطورك من اهتمام بسعادتي وراحة قلبي ، ونصــحك لي بالثبات والجلد . ولكن خبريني يا يمامتي من أين يأتيني الجلد

ونعلى مخروق ينفذ منه المـــاء والوحل كلما خطوت فى طريقى خطوة • وكيف استطيع الذهاب غدا الى الديوان بهذا النعـــل المنكود ؟ هذا ما يحيرنى ويقض مضجعى ، وما احسبه حريا ان يضنى اى نسان كريم ويمحقه محقا •

ولكن هذا على فداحتــه كان قمينا ان يهون عنـدى لو انه كان يعنينى وحدى ، فانا رجل متواضع ساذج ، لا يضيرنى أن اخرج بغير معطف ، وبغير قبعة، وبغير حذاء فى هذا البرد القارس فأنا أهل لاحتمـال كل شىء ، ولكن ماذا عسى ان يقول الناس؟ وماذا عسى أن تتخرص به ألسنة السوء ؟ فما الزينة واللبـــاس الحسن الا تقية اتقى بها الناس، فمن أجل رضاهم أتجمـــل ما استطعت ، ولو تركت لشأنى ما تجملت ••• ولهـــذا ارانى بحاجة الى حذاء جديد بأى شكل من الاشكال ، انقـاذا لشرفى وسمعتى من البوار •

ان الوقت لم يتسع لى أثناء زيارتك كى أفصل لك ماوقع لى اليوم تفصيلا كافيا •• فالله وحده يعلم كم قاسيت من الآلام وتحملت من الاوجاع النفسية فى غضون ساعات هذا الصباح المشئوم • ولاأرانى مغاليا اذا قلت اننى لم أعان ــ وأنا الشقى المرزأ ــ مثل هذا البلاء فى مدى عام كامل فيمامر بى من عمرى الحافل بالاحزان •

لقد صحوت وغادرت البيت فى ساعة مبكرة جدا ، حرصا على الفراغ من زيارة المرابى قبـــل موعد الديوان • وكان المطر ينهمر ساعتئذ ، والاوحال تغطى وجه الطريق ، فالتففت فى معطفى البالى ، ورحت أحث الخطى وأنا أقول ضارعا الى الله :

ــ رب اغفر لى خطيئاتى واكتب لى التوفيق فى هذا الطريق !

فلما مررت أمام البيعة رسمت على وجهى عـــلامة الصليب ، واستغفرت الله ذنوبى من قلب خالص ، واستأنفت سبيلى ، منطويا على نفسى ، غارقا فى أفكارى ، لاأكاد أنظر الى مواقع قدمى •

وكانت الشوارع خالية من الناس فى هذه الساعة ، ومن لقيته منهم كان يبدو عليه الهم والكرب. ولاغرو ! فمن ذا الذى يسير راجلا تحت المطر وبين الاوحال فى ذلك الوقت الباكر من الصباح ، الا أن يكون شقيا منكودا ؟!

وعبرت بى فى الطريق جماعة من العمال عليهم ثياب ملطخة بالزيوت والشحم والاوساخ ، وليست أكفهم بأنظف مما عليهم من الثياب ، فحتك بى أولئك المناكيد حتى أوشكت أن أقع . وكأنما كنت أنتظر هذه الصدمة الخبيثة كى أفارق ما أخذت به به نفسى من الجلد والهدوء ، فاذا القلق ينتابنى ، واذا أنا أخشى مجرد التفكير فى ذلك المبلغ الذى كنت فى طريقى الى اقتراضه من ذلك المرابى ..

وحين بلغت « قنطرة القيامة » انفصل عن حذائى أحد نعليه ، وما أدرى كيف استأنفت سيرى بعد ذلك على هذا الحال الغريب ..

وما سرت خطوات معدودات حتى لقينى أحد الموظفين فى الديوان ، فجعل يصعد فى نظراته ، ويتأمل هيئتى الغريبة ، ثم هز رأسه أسى كأنه يقول :

ـ أفى هذه الساعة ينكب الناس على الشراب ؟

ثم انتابنى تعب شديد ، فتمهلت قليلا حتى استرددت شيئا من قواى المنهوكة ، ثم واصلت المسير وأنا أتلفت حولى لعلنى أجد شيئا أشغل به خاطرى ، حتى لاتخوننى شجاعتنى فأعود أدراجى .. ولكن عبثا ، فلم أجد لذهنى مشغلة غير حالى .

وكانت ثيابى قد اكتست بالاوحال ، حتى تناثر منها على صدرى ووجهى رشاش ، فلحقنى من ذلك خجل شديد ، بدد مقاومتى وأوهى جلدى ..

ثم لمحت على البعد بيتا من الخشب أصفر اللون ، فقلت أمنى النفس وأهون عليها مشقة المسير :

ـ هذا هو أخيرا بيت ماركوف المرابى ٠٠ لم يبق عليه الا القليل ٠٠

وكنت واثقا من البيت ، بيدانى أحببت أن أستوثق ،فسألت البواب ، وكان رجلا جلفا ،فأجابنى فى جفوة وفظاظة واقتضاب :

ـ أجل٠ هذا بيت ماركوف٠

فلم آبه لغلظته ، وان كانت قد تركت فى نفسى أثرا سيئا٠ وقد جربت فيما مضى من عمرى أن من استبشر خيرا أفلح فى مسعاه ، ومن انقبضت نفسه لم يلق الا مايحزنه ويسوؤه ٠٠ وقد أوقع ذلك البواب فى نفسى كآبة ، فبدا على التردد ، وقر فى ذهنى ان الرجل رافض طلبى لامحالة ، وقفزت الى خاطرى كل عوامل التثبيط ، فتذكرت أن الرجل لايعرفنى ، فهو اذن حرى ألا يثق بى ٠٠ ولاسيما أن مظهرى لايشجع على الاحترام ٠٠

وكاد التشاؤم يثنينى عن الدخول ، لولا اننى قلت لنفسى :

ـ دع المقادير تجرى فى أعنتها، وليكن مايكون ، وعلى أن أسعى وليس على ادراك النجاح ٠٠ ولئن حاولت وأخفقت فقد أعذرت ٠

وهممت أن أدفع البوابة الصغيرة فى سكون وهدوء ، ولكن كارثة جديدة أفسدت على هذا العزم : فقد انبرى لى كلب صغير خبيث ، فجعل ينبح بكل قوته نباحا متواليا ٠٠

ولاتحسبى مثل هذا الامر الصغير تافه الاثر ، فما أوهن هذه التوافه لعزمات الحائرين أمثالى!٠

وتوكلت على الله مستعيذا به ودخلت ، فاذا كارثة أخرى تنتظرنى وراء الباب : فقد كان المدخل مظلما ، فلم أتبين موضع قدمى ، وكانت وراء الباب امرأة عجوز تصب اللبن من قعب كبير

فى آنية صغيرة ، فاصطدمت بها بغتة ، فطاح القعب من يدها وتدفق اللبن منه على الارض ،فجعلت تعوى وتتفجع وتصيح

ـ هل أنت أعمى أيها الشيخ؟ ألا ترى ماصنعت ؟ ماذا تريد هنا ؟

ثم تدفقت الشتائم من فمها مختلطة بالتأوهات والزفرات..

وانى أقص عليك هذه التفصيلات عمدا ، لان أشباهها تحدث لى على الدوام فى كل أمر أحاول قضاءه ، لسوء طالعى ... فما من مرة من هذه المرات الا أوقعني نحسى فى أحد أو فى شىء ما كان ينبغى لى أن أقع فيه .

وجاءت على الضجة امرأة عجوز قبيحة الخلقة ، فبادرت اليها سائلا :

ـ أهنا يقيم السيد ماركوف

فقالت على الفور

ـ كلا ...

ثم لما رجعت فى نظرتها الفاحصة قالت بعد تردد يسير :

ـ وماذا تريد منه ؟

فشرحت لها مرادى فى اختصار ، فنادت المرأة ابنة لها يافعة حافية القدمين وقالت لها بصوت أجش :

ـ نادى أباك ، فهو عند المستأجرين فى الدور الاعلى

ثم قالت لى :

ـ تفضل أيها السيد بالدخول

فدخلت ، فاذا حجرة لابأس بها ، على جدارها صور كبيرة الحجم ، مافيها الا صورة قائد أو أمير ! وفى وسط الحجرة منضدة مستديرة وايوان للجلوس وأصيص من البلسم .

فلما تركتنى العجوز وحدى قلت لنفسى :

ـ أليس من الخير لك ياصاح أن تخرج الآن ، قبل أن تتلقى صدمة الرفض القاسية ؟ ٠٠ أخرج الآن وعد غدا ، فقد يكون الجو أكثر اعتدالا ، فليس فى هذا الصباح مايبشر بالخير ،فقد أراقت السماء فيـه ماء المطر ،وأرقت أنت اللبن على عتبة الدار وليس فى مرأى هـؤلاء القواد الوقورين المهيبين الذين يطالعونك من هذه الجدران مايبشر بالخير والفلاح ! ٠٠

وهممت أن أستقبل الباب ،فاذا صاحبى يدخل منه ٠٠ واذا هو رجل أشيب الرأس ، عليـه ثوب من أثواب البيت باهـت اللون تعلوه طبقة من الاوساخ، فسألنى عن الباعث لى على زيارته فقلت له ان « ايميليـــــان ايفانوفتش » هو الذى أرسلنى، لاننى بحاجة الى أربعين روبلا لشأن عاجل ، فرأيت فى عينيه رفض طلبى واضحا ، ثم قال لى :

ـ لاجدوى من الحديث،فليس لدى ماأقرضه ٠٠ ثم هل معك ضمان أو رهن ؟

فأجبته :

ـ ليس عندى ضمان أورهن،ولـكن ايميليان قال انك رجل نجدة ،وأنا بحاجة ماسة الى هذا المبلغ فورا وبأى ثمن ٠ ٠

فأصغى لكلماتى كلها حتى انتهيت ثم قال :

ـ لاحيلة لى ، فليس عندى مال فى الوقت الحاضر ٠

فوددت فى هذه اللحظة لوأن الارض انشــقت فابتلعتنى يافارينكا ٠ ٠ ولكن الارض لم تنشق ، وبقيت قائما فى وسط الغرفة ، فى ملتقى نظرات القواد العظام المعلقة صورهم على الجدران وقد دارت بى الارض الفضاء، واستولت على قشعريرة مباغتة وخانتنى ركبتـــاى وتخاذلت ذراعاى

وجعلت أنظر الى الرجل ، والرجل ينظر الى ، وتكاد نظرته تصيح بى :

ـ أخرج أيها الرجل ! ماذا يبقيك بعد هذا ؟

ولـكنى تجلدت وبقيت حيث كنت ، فقال لى فجأة :

ـ ولماذا تريد هذا المبلغ ؟

فعجبت لتطفله الجرىء ، ومافتحت فمى لاجيبه حتى عاد الى الكلام دون أن يصغى لمـا كنت سأقوله :

ـ كلا ! كلا ! فليس لدى مال والالاديت لك هذه الخدمة عن طيب خاطر ٠

فحاولت اقناعه ،ورحت أتكلم وأتكلم ، مهونا من قيمـة المبلغ الذى أطلبه ، مؤكدا له عزمى على الوفاء به قبـل أجله المضروب ، واسـتعدادى لدفع أيما فائدة يطلبها بغير مماكسة ٠

وكانت صورتك ياملاكى العزيز هى التى شددت عزمى وأملت لى فى هذا الالحاح ٠ ولكن الرجل ظل على صلابته فلم يلن ، وجعل يردد فى اصرار : ٠٠

ـ لافائدة من الكلام فى الفائدة والربح ، فقد كنت أفـكر فى اقراضك لو كان معـك رهن أوضمان ، أماهكذا ياصاحبى فلا ! ليس عندى مال ٠٠ أقسم لك بالله العظيم اننى لاأملك هـذا المبلغ ، ولو كان معى لما ترددت فى اعطائك اياه ٠والله على ماأقول شهيد ٠

ماأشد تبجحه وهو يقسم آثماغير متحرج !

ولم أدر والله ياأختـاه كيف عرفت طريق الخـروج ، وكيف اخترقت الشوارع دون أن أضل طريقى ، فما كانت فى ذرة من الرشد ٠٠

ولم أصل الى مكتبى فى الديوان الا بعد أن تجاوزت السـاعة العـاشرة ، ووقفت فى دهليز الديوان قليـلا ، ثم فكرت فى تنظيف كسائى مما علق به من الوحول ، بيد أن «سنيبيجيريف» الحاجب نبهنى الى أن هذا العمل من شأنه أن يوسخ الفرشـاة ، والفرشاة مما يستعمله سـعادة المدير ٠ ثم انها من أملاك الدولة التى ينبغى أن تصان من العبث والتلف ٠٠

الى هذا الحد ياأختاه بلغ بى الهوان ، حتى على الحجاب والخدم ٠٠ فأنا أهون شأنا من حزمة من القش يسمونها فرشاة ٠ ٠ وهذا الهوان ياأختاه هو الذى يقتلنى غما وهما ٠ ٠ فليس الأفلاس والفقر الى المال فى ذاته شيئا ، لولا سقوط الكرامة وضياع الهيبة ٠ ٠ ولولا ذلك الهمس والغمز واللمز ونظرات السخرية التى أقابل بها فى كل مكان ٠٠

واها لى ياأختاه ! لقد مضت الحلاوة عن أيامى ، ولن تعود اليها ٠

لقد تلوت خطاباتك جميعا فى يومى هذا ، فأورثتنى هذه القراءة حزنا على حزن ٠ ٠

وداعا ياصديقتى ، وفى حفظ الله !

مقار ديوفشكين

ملحظ : لقد حاولت أن أمزج قصة اخوانى بالفكاهة ،فجاءت الفكاهة مريرة المعالم ، كأنها أنين أخطأ مخارج الصوت٠ وكم كان بودى أن أتبع نصحك فلاأكترث ٠٠ ولكن هيهات ٠ ٠٠ وسآتى لزيارتك عن قريب ٠٠

١١ أغسطس

بربارة ! يمامتى وأختى !

لقد ضعنا وانتهى الامر ! نزلت الكارثة بى وبك ، فقضت على سمعتى وشرفى ، وأصابك منها رشاش غير يسير ! لقد بت مضغة فى الافواه ، وأضحوكة للصغار والكبار ٠٠

لقد اجترأت ربة البيت على ،وأطلقت لسانها فينا بما وسعها من التهم والسباب ، لم تدخر تصريحا ولم تأل فى الاقذاع جهدا .. وكنت أنا سبب هذا البلاء الذى حاق بك منه أسوأ ما يحيق بامرأة مخدرة ٠

قبالأمس ، وقد أقبل الليل ، اخرج صديق من أصدقاء جارى

« راتازاييف » مســودة خطاب كتبته اليك ، وكانت قد وقعت من جيبى لشرود ذهنى وضعف بصرى دون أن أدرى ٠٠ وأخـذ يقرأ هـذه المسودة ، والسكان جميعا من حـوله يعلقون عـلى عباراتها بنكات مقذعة وسخرية لاذعة .. فثرت ووصمت جارى « راتازاييف » بخيـانة الصداقة وعهد الجوار ، فسخر منى قائلا :

ـ بل انت الذى خنت العهد ، ورحت من وراء ظهورنا تقتنص قلوب الغانيات ، أيهـا الغوى المضل الكهل زير النساء ٠٠

فانطلقوا جميعا يصيحون بى :

ـ زير النساء ! زير النساء !

وباتوا لا ينادوننى الا بذلك اللقب الشائن ! فما أشد خجلى وخزيى ! هم اذن يعـرفون كل شىء . هم اذن على علم بدقائق حياتنا وما بيننا من مودة وتعـاطف ٠٠

والانكى من هذا ان الخادم « فالدونى » بات فى زمرة الهازئين . فلما طلبت اليه اليوم أن يبتاع لى شيئا من الســوق ، أبى أن يذهب ٠ ولما قلت له وأنا فى عجب من أمره :

ـ ولكن واجبك أن تطيع ٠

أجابنى بوقاحة :

ـ لســت ملزما بطاعتك ما دمت لم تدفع أجر سكنك !

فلم أطق صبرا وصحت به :

ـ انت وقح

فرد على السبة بمثلها وزيادة ، فحسبته مخمورا وقلت له :

ـ أراك لســت فى حالتك الطبيعيــة ، وما أحســبك الا مخمورا ٠٠

فصعر الوغد خده وقال لى :

ـ وهل سكرت بمالك ؟ لو كان معــك ثمن كأس لشربتها ، ولكنك صعلوك مفلس تعيش على صـدقة تجود عليك بهـا امرأة

علمها عند الله وأهل العلم ..

ثم بصق على الارض وقال فى ازدراء :

ـ ومثل هذا العتل يدعوه الناس سيدا !!

. . . .

هذا يا أختاه هو ما صرت اليه اليوم ، حتى بت خجلان من نفسى ، مستخزيا من عيشى

أما لهذا الليل من آخر ؟

لقد هبطت حتى لم يبق مزيد من الهبوط ، وقنطت حتى استنفد آخر مدى القنوط ..

فحتى متى ؟

مقار ديوفشكين

١٣ أغسطس :

عزيزى العزيز

لقد تكاثرت علينا الارزاء ، حتى لم أعد أدرى ما العمل .. وثالثة الاثافى يا صاحبى ان المكواة أحرقت يدى اليسرى ، أحرقتها وأنا شاردة الذهن فلم أتنبه الا بعد فوات الاوان .. وكذلك استحال على العمل حتى تبرأ يدى ..

وهذه فيدورا مريضة منذ ثلاثة أيام ، فلا سبيل لها الى العمل أيضا ، فأنا من هذا فى هم مقيم .

هاك نصف روبل هو كل ما استطعت الحصول عليه ، وليس معى سواه .. والله وحده يعلم كم كنت أود أن أمد لك يد العون فى ظرفك الراهن . . ولكنها ارادة الله !

لقد بكيت قهرا عندما حرقت يدى . بكيت من أجلك ، فقد كنت أريد أن أعمل غاية جهدى لكى أعينك على حياتك .. فتعال لزيارتى اليوم ، ففى ذلك مسلاة لى كما تعلم

بربارة

١٤ أغسطس :

ماذا دهاك بحق السماء يا مقار الكسييفتش ؟ الا تخاف الله؟ انك تكاد تدفعنى الى الجنون دفعا بمسلكك المخزى ٠٠ فاتق الله فى سمعتك ، فقد كنت على الدوام رجلا فاضلا متزنا أبى الخلق ، فكيف سولت لك نفسك أن تلطخ بالعار لمتك البيضاء ؟

اتق الله يا شيخ ! لقد ضاقت فيدورا بتصرفاتك ذرعا ، وأقسمت لا تساعدك بشىء من كدها بعد اليوم ، ما دمت تبدد ما يصل الى يدك فى العبث الذى يسقط مروءتك ويفضحك بين الناس ٠ وانى على رأى فيدورا فى هذا ، فلن أعطيك بعد اليوم درهما يا مقار الكسييفتش ٠

أم تراك تظن انه يستوى عندى خيرك وشرك ، فضلك ومجانتك صلاحك وفساد أمرك ؟ أو تجهل ما أتحمل راضية من أجلك ؟ لقد أخزيتنى باعوجاج سراطك ، حتى بت لا أجرؤ على الظهور فى درج بيتى ، فما يرانى الجيران حتى يشيروا الى بالبنان ويتهامسوا بكلام تقشعر منه الابدان ٠٠ ومنهم من لا يخافت من صوته حين يصمنى بالتفريط فى شرفى فى سبيل سكير عربيد ! ٠٠ أو تحسبنى أسر بسماع مثل هذا الكلام ؟

وما من مرة أعادوك الى بيتك غائبا عن الصواب بما عببت من الخمر الا تحدث الناس عنك كما لو كان السكر صفة ملازمة لك لا تستحق مناقشة أو تعقيبا أو دهشة ٠٠ فاخجل لك ٠٠ حتى بات بقائى فى هذا البيت أمرا لا يطاق بسببك ٠

أجل ، لقد عزمت على الرحيل عن هذا البيت بأى ثمن ٠ سأعمل قهرمانة ، أو خادما أو غسالة ٠٠ فأى شىء أفضل من عار صداقتك ٠

لقد دعوتك فى خطابى السابق لزيارتى ، ولكنك لم تأت ٠٠

فهل صارت توسلاتي عندك الى الهوان ، حتى ما تستجيب لى رجاء يا مقار ؟

ومن أين لك ثمن الشراب ؟ نشدتك الله يا صديقى أن ترحم نفسك وترحمنى ، ففى هذا الخمار قضاؤك ، وفيه ضياع سمعتك وسقوط مروءتك .

أرأيت الى ربة بيتك كيف أغلقت الباب فى وجهك ولم تأذن لك فى الدخول وقد عدت أمس فى ساعة متأخرة ، تترنح من شدة السكر .. فقضيت ليلتك ـ أو ما بقى منها ـ فى دهليز الدار .

أكنت تحسبنى لا أعرف هذا ؟ بل أعرفه يا صديقى ، فكل سر يذيع بين الناس ، ولا سيما أسرار السوء وأخبار المآثم .. ولعلك تقدر مبلغ حزنى وخجلى حين سمعت الحقيقة من أفواه الناس هذا الصباح .. فاتق الله فى نفسك ، وفى شرفك ، وفى قلبى المعذب من أجلك ، فانك توشك أن تقتلنى حسرة وأسى .. فما من شيء يعلقنى بالحياة الآن الا أنت .. فمن أجلك محياى فلا تكن علة مماتى ، ولا تدع أعباء الفاقة تفسد عليك عزيمتك ومروءتك ، فليس فى الفقر ما يعيب المرء ذا المروءة ، وانما يعيبه حقا جنوحه الى المجانة والاسفاف ..

وانى أعلم ان يأسك من يسر حالك هو الذى أودى بما تعتصم به من التجمل والجلد ، فانسقت فى تيار الشراب . ولكنك مخطىء فى هذا القنوط ، فما من عسرة الا الى ميسرة . والله المستعان .. فاعتصم بحبل الله ، وأصبر ولا تقنط .

أبعث اليك بعشرين كوبكا لتشترى بها طباقا لغليونك . ولكن نشدتك الله ألا تنفقها فى خبيثة من الخبائث ، وأم الخبائث الخمر !

تعال لزيارتنا ، ودع عنك هذا الخجل ، فلا عليك مما فعلت ، ما دمت قد تبت وانبت ، والله يقبل توبة التائبين ، وسيجعل الله لك بعد ضيق فرجا ، والسلام

بربارة

١٩ أغسطس

بربارة ، يا أختى العزيزة !

شد ما يثقل على الخجل ، حتى ليكاد يأخذ على مسالك الانفاس! ولكن أى ضير فى هذا الذى أقترف ؟ وهل من ضير فى اذابة الهموم فى كأس سميت كأس الحياة ، « لو مسها حجر مسته سراء » ..!؟

أم هل كتب على يا أختاه أن أظل أسير الهموم ، لا أسرى عن فؤادى بعض ما يغص به من الأوصاب ، برشفة من الشراب ، تنسيه ما يلقى من دهره ، وما يعلق بسره وجهره ، من الضعة والهوان ؟

ألا بارك الله فى بنت الحان انما أعب منها جرعة بعد جرعة ، حتى أنسى نعل حذائى الذى ذهب مع الريح ! . لعن الله ذلك النعل ، فما ينفك يشغل دماغى فى اليقظة ،ويتراءى لى فى أحلامى حين أنام !

وما أدرى والله ما لزوم الاحذية للناس ؟ انها قيد وهم .. وما كان قدماء يونان يتخذون الاحذية ، وانما هى خفاف لطاف ، فلماذا نعنى أنفسنا بما لا طائل تحته ؟

فأى عار فيما أفعل يا أختاه ؟ انك والله لتقيمين الدنيا وتقعدينها فى غير جدوى . وأما فيدورا فابلغيها عنى انها امرأة خواء القلب تافهة العقل عتلة زنيمة خبيثة الطوية !

.. وأما ما عرضت به من شعرى الابيض ، فذلك وهم من أوهامك يا أختاه ، فلسنت من الهرم بحيث تتوهمين .. وان فى لفتوة !

تقولين انك حزنت وبكيت غما وأنا كذلك بكيت يا يمامتى . والله تعالى مسئول أن يرفع عنا سخطه ومقته ..

واياه أسأل أن يمنحك الصحة والعافية . أما أنا فبخير حال ، وانى لك على الدوام يا ملاكى

الصديق الوفى
مقار ديوفشكين

٢١ أغسطس :

سيدتى العزيزة وصديقتى بربارة ..

انى أشعر الآن بجسامة خطئى ، فقد أخطأت فى حقك خطأ فادحا . وما أخالنى وقد عنيت قلبك الغض وأضنيته بالهموم الا وحشا ضاريا .. ولكن الحق يا يمامتى اننى لست وحشا ضاريا ، بل رجل طيب القلب ، هو أشبه خلق الله بالحمل الوديع ..

فكيف اذن تورطت فى هذه الاخطاء وأنا ذلك الحمل الوديع الطاهر الفؤاد ؟

لا أدرى ! ولكنى أذكر انك بعثت الى ذات مرة نصف روبل « ثلاثين كوبكا » ثم عشرين كوبكا بعد بضعة أيام .. فحز فى نفسى جدا أن أهبط الى هذا الدرك ، وأن تجد فتاة رقيقة القلب مثلك ان التصدق على أمر طبيعى .. لقد كانت دراهمك أيتها الفتاة اليتيمة مثل درهم الارملة المتسولة التى وضعته فى صندوق النذور ، شيئا يرجح ملايين الاغنياء ، ويزيد عليها فى القدر .. ثم أحرقت يدك بالمكواة ، ولم يبق لديك ما تأكلين ، ومع ذلك شغلت نفسك بالاحسان الى ، كى أشترى طباقا أو خبزا .. فلما انفقت دراهمك فى طعامى وطباقى ، استولى على ندم شديد .. وما كنت قمينا أن آكل صدقتك أيتها اليتيمة المحرومة دون أن يعصف بى الندم والحزن .. فكان هذا الندم أقوى من احتمالى ، ومن « قشرة » الكرامة الرقيقة التى أتجمل بها أمام

نفسى .. فانهارت هذه القشرة ،وجرفها تيار ندمى وخجلى وحزنى ومن هذه اللحظة بدأت قصة سقوطى ، بعد حياة طويلة من التماسك ونقاء الصفحة !

فهل ترينني ملومة على هذا السقوط ؟

لا أظن ! وانما هو القدر ، القدر الذى جعل منى ألعوبة هينة بين يديه القاسيتين ..

لقد كنت أعالج همومى بالتجول فى الشوارع حين صادفنى ايميليان ، الموظف الذى رفت منذ زمن من ديواننا ، وكان يحمل أشياء يريد ارتهانها ،لان عياله جياع .. ولكنها أشياء لا ترتهن ، فليست لها قيمة الامن حيث هى تذكارات شخصية وأخذتنى به الشفقة ،ورأينا حانة على الطريق يشع منها الدفء .. وكان الجو باردا يا بربارة ،فملت معه اليها ،وشربنا كأسا، ثم شرعنا فى البكاء معا ، على سوء حظنا وسواد أيامنا،فوجدنا فى البكاء راحة ، ثم شربنا كأسا أخرى ، وجعلنا نتذاكر آلامنا وأحزاننا ..وتحدثنا عنك كثيرا يا يمامتى . . فبكى ايميليان من أجلك ، فهو رجل طيب القلب،ولكنها مظالم الايام !

فلا تحسبى يا يمامتى اننى أجهل ما أنا مدين لك به ، فأنا مدين لك بالحياة كلها ،فقبل أن أعرفك لم أكن حيا ، لقد كنت وحيدا لاأشعر بنفسى أو بمرور أيامى . كنت كالنائم ، والنائم أخو الميت، لااحساس له بالدنيا ومافيها..وكان معارفى يحتقروننى شكلا وموضوعا ، حتى انتهى بى الامر الى تصديقهم ، فاحتقرت نفسى.

ثم ظهرت انت ياملاكى فى أفق حياتى ، فبدلت ظلامها نورا مشرقا ، وبعثت الحياة فى نفسى الموات !..وبدأت أعى وجودى، وأشعر أن لى قلبا ، وان لى روحا،وان لى نفسا كنفوس البشر !

وفى فيض من نورك الذى أفأته على نفسى ، عرفت معنى الطمأنينة ، وهدوء السريرة ،وانجاب عنى الشعور بالمهانة والدونية ، وبت أرى نفسى كفئا لاى انسان ممن كنت أحسبهم

خيرا منى بمراحل ٠٠ ولم تعد تـكربنى زراية مظهرى وقماءة قامتى ، بعد أن صح عندى قيام شخصيتى الانسانية بمـا انعقد بيننا من صداقة وتقدير ٠

فلما كثرت على المحن ، وتداعى ذلك التقـدير الذى كنت أستمده منك ، انهارت روحى المعنوية ، ولم يقف سقوطى عند حد ٠٠

فاذا أردت بى رحمة فأطوى هذه الصفحة ،ولا تجرى لها بعد اليوم ذكرا ، لانها تهيج مابى ،وتمزق شغاف قلبى ٠

ولك خالص احترامى وصادق مودتى

مقار ديوفشكين

في متاهة الزمن

٣ سبتمبر :

لقد عاقنى الحزن والاسى عن اتمام خطابى السابق اليك يامقار .. فحين تجثم الكآبة على صدرى لا أجد فى نفسى مطاوعة على الكتابة او الحديث، واركن الى الخلوة كى اترك نفسى على سجيتها ، واطلق العنان لاحزانى ودموعى ..

وارى هذه السحائب السوداء قد كثرت فى الايام الاخيرة كثرة عظيمة ، حتى صارت اشباح الماضى وتذكاراته تحف بى أكثر مما تحف بى حياتى الواقعة . وقد تستغرقنى هذه التذكارات حتى أنسى الزمان والمكان وكان الواقع قد تلاشى من الوجود .. وقد تدوم هذه النوبات ساعات متواليات ..

وأكثر هذه التذكارات مما يرجع الى عهد الطفولة الناعمة فى أحضان الريف ..

وأما صحتى ، فهى تزداد على الايام ضعفا ، وأحسب هذه الذكريات علة ضعفى واستنفاد عافيتى ..

بيد انى ارى هذا الصباح صحو الاديم مشرق الضياء ، على غير المعهود فى أيام الخريف . . ألا شد ما كنت أحب الخريف ، أيام كنت فى القرية طفلة مرخاة العنان بين الماء والزرع والهواء ، مستقلة بمشاعرها .

فى تلك الايام ، كنت أوثر امسيات الخريف على صباحه ولا سيما على حفافى البركة الكبيرة التى تجاور بيتنا ، عند سفح التل . فهناك كنت أجلس اذا أرخى الليل سدوله ، واوت الماشية الى مزاودها ، وسكنت كل نأمة فى القرية . فاذا صفحة الماء فى سكونها وصفائها كأنها سبيكة من البلور ، ودخان الخشب المحترق امام كوخ للصيادين يملأ الهواء الساكن

برائحة خفيفة ، والندى يرصع نابت العشب الاخضر بلؤلؤة في أثر لؤلؤة.. وللهلال في صفحة السماء الصافية لألاء وبهاء يملأ النفس بهجة وهدوءا .. فاذا خفق جناح طائر ، او روعه عن وكره مروع فصوت فزعا ، ملأ ذلك الصوت آفاق الفضاء . لان سكون الليل الرطيب قد احال الجو الى صندوق من صناديق الكمان الرنانة ..

شد ما كنت آنس الى هذا السكون الذى يزيل الحوائل بين نفسى وبين رحابة الكون اللامتناهى .. !

كذلك كان الخريف وأمسياته الحسان فى ذلك الزمان.. حتى اذا حث الخريف الخطى ، وجاء فى أعقابه الشتاء ، نقلت مسرح خواطرى من ضفة البحيرة الى مسالك الغابة ذات الدوح المنيف والظل الوريف ، الذى يضرب الضوء فيه الى الزرقة فى النهار حتى اذا قربت ساعة الاصيل استحالت الزرقة سوادا حالكا.

وكثيرا ما كنت أنسى نفسى فى نزهتى ، فيهجم الليل ؛ وتتراءى لى الاشجار الباسقة كأنها المردة تهم بالانقضاض على وأنا أسير وحدى فى قلب الغابة الموحشة .. فأحث الخطى ، وقد جعل قلبى يخفق ويضطرب فكأنى ورقة تتقاذفها الريح ، التى أسمع عزيفها بين الغصون وأحس به يقترب منى كأنه زمزمة تطلقها أفواه الشجر ..وأخالها تقول لى فى صوت أجش يقطر رهبة ووعيدا ..

ـ اسرعى أيتها الطفلة .. !اسرعى .. ! فليس هنا مكانك فهو مسرح رهيب لرهيب من الاحداث يكتم سرها الليل الكتوم فأجرى ما أسعفتنى قدماى وساقاى ، حتى أصل الى بيتنا مبهورة الانفاس ، فاذا الضوء ينبعث من السراج ، والدفء يشيع فى الحجرات ، والاصوات المأنوسة تملؤها بهجة وأمنا .

فأجلس الى مربيتى العجوز ، فتقص على قصصا رائعا ، تشارك فى روعته مخيلتى الناشطة .. حتى ليجفو النوم أجفانى فى بعض الليالى ، لكثرة ما تشغل تلك الاقاصيص بالى ، بما فيها من سحرة ومردة ومغامرات .. ولكنى كنت أجد نفسى عند مطلع الصبح جمة النشاط كزهرة انعشها ندى الفجر ، وأيقظتها قبلات ضوئه الحانى ..

ومع الصبح تبدأ حياتنا الهانئة الهادئة . فنجلس قرب نار الموقد ، ونحلق باناء الشاى الكبير (الساموفار) ، ويدخل علينا كلبنا « بولكان » وقد جلله الندى لانه بات تحت الطل فى العراء أمام باب البيت ، فيحيينا ببصبصة من ذنبه الكث الشعر ويجلس بيننا ، كى ينعم بالدفء .. وكأنى بنا كنا نسمع خفق اجنحة السعادة وهى ترفرف فوقنا ، فالمحصول وفير ، والدفء يشملنا ، وكل شىء يبعث على الرضى والطمأنينة .

***

هاهما عيناى وقد استهلتا بالدمع لذكرى تلك الايام الخوالى ، التى بدل الزمن المبدل أمنها حزنا ، وأنسها وحشة ، وصفاءها كدرا ، وجمالها قبحا ، وطمئنانها بلاء وهما مقيما ..

أما لهذا الليل من آخر .. ؟

انى لأتوجس من هذا الخريف شرا ، وتحدثنى نفسى أنه سيشهد ختام أيامى ، فالمرض يلح على الحاحا شديدا ..

وما بى خشية الموت ، ولكنى لا أحب أن أدفن فى أرض المدينة التى تضيق بالناس ولا تبدى لهم الا الكزازة والكنود ..

وما حيلتى . . ؟ أن العلة تزداد فوق صدرى جثوما ، حتى لاخشى أن ألزم الفراش ، وماغادرته الامنذ أيام معدودات شد ما تثقل على الوحدة .. ففيدورا اليوم غائبة عن الدار فى شأن من خاص شئونها ، فأسلمتنى الوحدة الموحشة

للكآبة والتشاؤم .. ولعل هذه الوحشة هى التى أملت على هذا الخطاب الطويل ، فالكتابة اليك تؤنس وحدتى وتبدد وحشتى ..

ولكن ما عندى من الورق قد نضب معينه ، فلا محيص عن انهائه عند هذا الحد ..

لقدبقى من ثمن ثيابى والقبعة التى بعتها بالامس روبل من فضة ، أبعث به اليك كى تحاول اصلاح كسائك قدر ماتستطيع وان كان قد صار الى حالة تستعصى على كل اصلاح ..

أرانى تعبت وأصابنى الكلال .. ولست أدرى لماذا يسرع الى التعب وشيكا لاقل مجهود .. حتى ما أدرى ما أصنع لو ساق الى الله عملا .. ما أحسبه الا قاتلى ..

بربارة

٥ سبتمبر :

يمامتى وعزيزتى فارينكا !

تداولتنى هذا الصباح أحساسات شتى ، حتى اضطربت نفسى ، فرحت أنشد عند الاصيل شيئا من الراحة والهدوء على الشاطىء .. وكان المساء حالك الظلمة ، وفى الجو اثارة من الرطوبة .. ولم تكن الساعة مع هذا قد جاوزت السادسة .

وكانت صفحة السماء مغطاة بالغيوم ، وعلى شاطىء الترعة زحمة من الناس تساوق زحمة السحاب فى أفق الليل ..

ومن عجب ان ذلك الجمع الحافل من الناس لم يكن فيه الا كل وجه هضيم ، وكل سحنة للكآبة عليها مسحة وذبول . وجميعهم من نفاية المجتمع بين نسوة ورجال ، فليست ترعة « فونتانكا » من منازه السادة وأهل السمت .. !

وضقت بالمكان ورواده ، فعدلت عنه الى شوارع المدينة

فساقتنى قدماى الى شارع « جورو خوفايا » .. فاذا انوار وحركة وتجارة نافقة وواجهات جميلة وأزهار مونقة ..

وقد حسبت والله أن كل هذا الجمال المختلف الالوان مما جعل للزينة ولذة العيون والأذواق ، ولـكنى رأيت نفـرا من الناس يشترون ذلك الجمال ،فيحصلون عليه لقاء ما يبذلونه من المال ..

وأما أرض الشارع ، فما ادري والله كيف كانت تتحمـل كل هذه العربات المطهمة التى كانت تدرج فوقها غادية رائحة ، فى أبهة وخيلاء : فالزجاج لامع كأنه المرايا المصقولة ، ومن خلفه الخزوالديباج ، يجلس بين ثناياه فتية موشاة صـدورهم ، وفى جنوبهم الاسياف الصقال . . ونساء كأنهن الاقمـار ، عليهن الدر والياقوت وريش الطاووس .. وعليهن جلال الامارة .. فلعلهن من الامـيرات ، وان لم يكن أميرات فدوقات أو كونتات وما أشوقنى أن أرى أميرة او كونتة رأى العيان عن كثب ..! ولكن هيهات .. ! لا يكلف الله نفسا الا وسعها .. !

لقد خطـرت ببالى فى تلك الـسـاعة يا يمامتى الجميـلة ، وصـديقتى العـزيزة . . وما تخطرين ببالى ، حتى يتنزى قلبى ألما لما تلقين من دهرك الغشوم وقضائك الظلوم .. !

بماذا تفضلك يا يمامتى أى واحـدة من هاتيـك المترفات الناعمات ، وانك لطيبة النحيزة حلوة الشمائل ، سرية النفس ، زكية الفـؤاد ، وأنك لحسنـاء كالبدر ليلة التم ، رقيقة كالزهرة

فلماذا يا الهى تشقى من ليست للشقاء بأهل .. ؟ لـماذا ألتمس أسباب السعادة فتخطئها جميعا سببا بعد سبب . . !

اغفرى لى يا اختاه هذه الثورة المتمـردة ، فانى عالم انهـا خطيئة وكفران لا يليق بالرجل الفاضل ، لانها من قبيل الافكار

التقدمية الملعونة .. ولكنى لا أملك ـ مع هذا ـ الا ان اتساءل مرة اخرى : « لماذا يشقى أناس وينعم آخرون .. ؟ لماذا يكتب الشقاء على قوم دون ذنب ، ويكتب الرغد وخفض العيش لقوم آخرين دون استحقاق ؟ »

هذه والله حيرة العقول ، وحيرة الضمائر والقلوب .. ! فكم من مخلوق لا يساوى ملء أذنه نخالة . . فلا فكر ولا احساس ولا ذوق ، هبطت عليه محاباة القدر ، فقال له :

ـ اسمع يا هذا .. ! لست شيئا ، ولكنى اريد لك ان تتمتع بكل شيء .. ! فهذا ميراث جدك الراحل يغل عليك أكداس الاموال ، فكل واشرب ، وكل ما اشتهيت فهو لك . . فهذه ارادتى ، ولهذا ينبغى أن تعيش!

فلماذا لا تكون لك يا يمامتى عربة مطهمة ، وأثواب من خز وديباج ، فسيتجدى القواد والامراء نظرة من عينيك الساحرتين وانت تتيهين عليهم بجمالك وشبابك النضير .. ؟ !

لماذا لا تجدين شبع بطنك من جوع ، فلا تكدحى وانت مريضة ، حتى يشتد عليك الهزال وتصطلح عليك الادواء ؟ !

لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا .. ؟

لو كان لك شيء من ذلك لكان حسبى من الدنيا وما فيها ومن فيها ان أرمقك من بعيد وأفرح لهنائك ومجدك ..

ولكنك وأسفاه ، فتاة يتيمة ، بلا مال ، وبلا معين ، وبلا سند يقيك غائلة الدهر ، وغائلة ذئاب البشر ، أولئك الوحوش الذين لا ينظرون اليك الا نظر الصائد للطير والباشق للعصفور يأتمرون بك لانك ضعيفة ، مهيضة الجناح ، بلا أبوين وبلا مال .. !

الا قاتل الله الفقر يا أختاه !

وقاتل الله رجالا يعدون على من لا حامى لها ولا راع ، فهم

أشباه رجال ولا رجال ، وذئاب وبنات آوى فى أجلاد آدميين .. !

ويا رحمتا لنا نحن عيال الله الفقراء من عباد الله الذين حباهم الثراء وسلبهم الاريحية والآباء !

خير منهم والله عازف الارغول الذى يجهد شدقيه وصدره كى يرسل انغامه العذاب سلوة للناس .. فهو انسان كريم ، يمنح الناس لذة ومتاعا ، وليس ساطيا عليهم يسلبهم أمنهم ، متى أمن المقاومة والعقاب ..

وانا يا أختاه من طراز هذا العازف الفقير الهين الشأن ، فأنا ايضا أبذل طاقتى فى اعطاء المجموع الذى أعيش فيه ثمرة جهدى المتواضعة ، ولا أسطو على أحد باغيا عاديا ..

***

لقد وقفت يا اختاه ارقب منذ أيام جماعة من الاطفال الحفاة العراة ينتفضون من شدة البرد ، وأمهم العجوز ـ من اثر الفاقة لا بفعل السن ـ تستندى أكف المارة بقصة جوعهم وفاقتهم ، وما نزل بهم من كوارث شداد .. فكان المارة يضيقون بها وينهرونها ويمضون فى طريقهم ساخطين .. فعرفت يا اختاه ان ذوى اليسار لا يحبون من الفقير أن يصرخ فى آذانهم بقصة شقائه ، فذلك قمين ان يفسد عليهم جوهم الناعم وعيشهم الخفيض .. فالفقر شىء منكر قبيح . والناس يكرهون المنكر والقبيح .. !

عفوا لهذا الاستطراد ، فانى أجد فى كتابة جميع خواطرى اليك راحة وسلوى ، فقد أبت من نزهتى مكدود الخاطر ، تعترض الغصص حلقى ، ولا أجد للحياة طعما سائغا ، فاذا « جورشكوف » ـ ذلك الموظف المفصول من الخدمة الذى يعيش واسرته كلها فى غرفة واحدة من بيتنا ، والذى مات أحد اولاده منذ مدة قريبة ـ اذا بهذا الرجل يدخل غرفتى فى استكانة

ومذلة ، ويطلب منى – منى انا – أن أعطيه شيئا لبنيه الذين أضر بهم الجوع .. !

أختاه .. ! ان هذا فظيع !

لقد حاولت ان أفهمه انني مثله رجل فقير ، وانني حاولت الحصول مثله على قرض فلم أفلح ، ولكنه ظل يردد على سمعي جوع اولاده وحاجتهم الى الخبز القفار منذ يومين ، وان سائر السكان يضيقون به ولا يفهمون ولا يرحمون . . فتذكرت أن الناس لا يفهمونني ولا يرقون لفقرى وحاجتى ، بل يهزأون بى .. فأعطيته العشرين كوبكا التى كنت قد حرمت نفسك منها لتبعثى الى بها .. فجعل يشكرنى بعبارات متعثرة ..

فسألته كيف انتهى الى هذا الفقر المدقع ، فحكى لى قصته وانها لعجيبة من عجائب الظلم وسوء الطالع .. فقد كان يعمل فى أحد دواوين الحكومة ، عملا يتصل بأعمال المقاولين الذين ينشئون الدور الحكومية ، فزور ذلك المقاول فى أوراق العمل دون ان يدرى جورشكوف المسكين ، فلما ضبط التزوير جر المقاول الخبيث جورشكوف معه الى التهمة ، ففصل من العمل . . فقدم جورشكوف تظلما ورفع الى القضاء قضية تعويض ضد المقاول .. ولكن هذه الامور كما تعلمين رهن بالوساطات والنفوذ . . وجورشكوف مثلنا لا نفوذ له ، وليس محسوبا على احد من ذوى النفوذ . . فانقضت سنوات دون ان يفصل فى هذه القضية التى لا تزال تتعثر أمام دور المحاكم ..

ومن يدرى .. ؟ ان الامل فى انصاف امثاله جد قليل . وانى لارق له رقة شديدة ، حتى ما أدرى كيف سيواتيني النوم هذه الليلة .. ؟

ان هذا المسكين لا يجد عملالان فصله من الخدمة سلبه حقه فى الثقة به ولو كان رجلا شريفا .. والبطون لا ترحم يا أختاه !

وقد ساءت صحته فى الشهور الاخيرة ، ولا سيما بعد موت ولده ، واصابه داء لا أمل فى شفائه منه .. فهو أشقى منى بكثير ، وشقاؤه يزعجنى ويقض مضجعى ، ويجعلنى أكرر سؤالى — رباه .. ! لماذا كل هذا الشقاء .. ؟ وماذا يمكن ان تكون الحكمة منه .. ؟ !

ولكنى أثوب الى رشدي وأستغفره سبحانه . . انه هو العزيز الحكيم والرحمن الرحيم

...

والآن سلاما يا يمامتى .. ومتعك الله بالعافية .. فأنت ريحانتى التى استروح منها الحياة حين يخطر ذكرك ببالى المكدود .. وحتى اذا تألمت لك حين أذكرك ، فما اعذبه من ألم لانك موضوعه الجميل يا صديقتى ونور أيامى ..

مقار ديوفشكين

بيد الله

٩ سبتمبر

أختى بربارة الكسيفنا !

أكتب اليك وأنا فى حال من الاضطراب ليس عليها من مزيد. فقد هزنى الحادث الذى مر بى اليوم هزا عنيفا .. حتى ما أدرى كيف أبدأ بالافضاء به اليك . فهو شيء غير منتظر ، وليست له فى ظننا سابقة بشير ، وان كنت قد رأيت فى المنام منذ ليال رؤيا تبعث على الارتياح .. وأحسب هذا الذى وقع لى اليوم تأويلها ، والله أعلم !

ألم أقل لك فى خطابى ان الله هو العزيز الحكيم ، الرحمن الرحيم ؟ ..

هو كذلك سبحانك ولاشك !

بالامس حضر الى مكتبى « تيموثاوس ايفانوفتش » رئيس الادارة ، وتواضع فكلفنى شخصيا بكتابة وثيقة هامة عاجلة للعرض على سعادة المدير العام ، وأوصانى أن أجود الخط ، وأنمق التنسيق فكتبتها على خير ماوسعنى فى تلك الساعة ، فقد كنت بالامس ياي‍مامتى على غير مايرام ، ضيق صدر وشرود ذهن .. وكانت صورتك لاتفارق مخيلتى ..

ولست أدرى أى شيطان من شياطين النحس ركب يدى فى تلك الساعة ، فنسيت سطرا كاملا ، فأصبحت الوثيقة كلها ولامعنى لها .. دون أن يفطن الى ذلك أحد . ويظهر أن الوقت لم يتسع أمس لعرضها على المدير العام ، فعرضت عليه فى أول هذا النهار .

وذهبت أنا اليوم الى المكتب خالى الذهن ، فجلست كالعادة وانصرفت الى الكتابة والتحبير .. ولا أكتمك أن أعصابى قد أضحت فى المدة الاخيرة شديدة التوتر ، وصرت أتجنب النظر الى وجوه الناس ، حتى لاتلتقى عيناى بعيونهم . واذا أحدث كرسى من

كراسى الموظفين صوتا خفيفا اضطربت له وقفزت من مقعدى وجلا !

بيد اننى كنت هذا الصباح فى حالة أشد نكرا من مألوف أحوالى ، حتى أن الكاتب « اكيموفتش » - وهو من شرار الخلق وأكثرهم رقاعة - سألنى:

- ماذا بك اليوم يامقار ؟ انك لتبدو مقلوب السحنة !

ثم قلب سحنته ليقلدنى ، فانفجر جميع من فى المكتب ضاحكين وشعرت بالعرق يتصبب من جبينى فى هذا الجو البارد .. وانكمشت فى مكانى خزيا ، وأغمضت أجفانى كى لا أراهم وهم يتلوون من شدة الضحك . فتلك عادتى اذا سخروا منى ، فالمقاومة تغريهم بالاستمرار فى العبث ، والاغضاء يصرفهم عنى .

وفى هذه اللحظة بالذات سمعت ضجة فى الدهليز الخارجى ، ووقع أقدام تجرى من هنا وهناك ، ثم سمعت ما أنكرته أول الامر ، وعزوته الى وهم من أثر ما حدث حولى من ألاعيب أولئك الخبثاء .. ولكن الصوت تكرر وازداد قربا ، فأيقنت أن أذنى لم تخدعنى .. وان هناك من ينادينى فعلا وصدقا . فاشتدت عندئذ دقات قلبى ، واستولى على فزع جائح .

ولست أدرى على وجه التحقيق علة هذا الخوف الذى أصابنى ، ولعله راجع الى اننى كنت دائما رجلا مغمورا لا يكترث لى أحد ، ولم آلف أن ينادينى أحد ليسدى الى يدا ، فما يذكروننى الا بالسوء !

وبلغ من هلعى اننى زدت تشبثا بمقعدى ، وتجاهلت اننى سمعت النداء باسمى مثنى وثلاث ولكن ضجة المنادين اقتربت منى حتى صارت لصق أذنى .

وصاح فيها أحدهم - حتى أوشك أن يخرقها بسياحه :

- ديوفشكين . ديوفشكين .. هيا يارجل ، اسرع ! فأنت مطلوب فى مكتب سعادة المدير العام .

- المدير العام ؟

ـ أجل ! فقد أفسدت وثيقة الامس، ونجم عن ذلك بلاء عظيم.
فأحسست كأن الصواعق قد انقضت على أم رأسي انقضاضا ، وسرت البرودة الى أطـرافي ،وشلني الفزع الاكبر.. ولكنهم لم يدعوا الى فرصـة للراحـة واسـترداد جأشي الذي أطاشته الصدمة المباغتة ، فسعادة المدير العام في الانتظار ، ولا ينبغي أن يظل سعادته في الانتظار .

ومشيت كما يمشي حالم في المنام ،غير شاعر بشيء مما يدور حولي ، فأنا أقرب الى الموتى مني الى الاحياء .. فجازوا بي حجرة فسيحة ، من داخلها أخرى ،ومن داخل تلك ثالثة هي مكتب سعادة المدير العام،فما شعرت الا وأنا قائم أمامه ،بل « مزروع » أمامه زرعا،فقد كانت قدماي كالغائصتين في أرض الحجرة الفاخرة ..

ومن أعظم المحال أن أصف لك شـعوري وفكري في ذلك الموقف العصيب، فما أذكر انني كنت أعي شيئا ، سـوى مثولي أمام صاحب السعادة ، الذي كان محوطا بكوكبة من رؤساء الادارات والاقلام ..

وبلغ بي الذهول انني لم أسـلم على صـاحب السعادة ، بل وقفت هكذا كالجماد ، فاغر الفم محملق العينـين ، وركبتـاى تصطـكان من هـول الموقـف اصطكاكا .

وحدث في هذه اللحظة ما زاد موقفي سوءا ، بيني وبين نفسي على الاقل : فقـد رفعت عيني ،فاذا أمامي مرآة كبـيرة بطول الحائط ، رأيت فيها ما أطار البقية الباقية من صوابي :رأيت صورتي بما تتسم به من ملبس زري ومنظر منفر ..

وأنت تعلمين ياأختـاه انني كنت أتسلل حتى لا ألفت الى أنظار زملائي، أما صاحب السعادة فلم يدخل في حسابي من قبل ،لانه لم يكن يعلم عـلى الارجح مجرد وجودي تحت ادارته السنية .

وبدأ صاحب السعادة الكلام بصوت ينم عن استياء شـديد وغضب مكتوم . قال.

– كيف وقع هذا منك أيها السيد ؟ أين كانت عيناك حين كتبت هذا التخليط ؟ هذه وثيقة هامة من وثائق حكومة صاحب الجلالة المقدسة قيصر جميع البلاد الروسية ، وقد طلبتها على وجه الاستعجال ، فكيف سمحت لنفسك أن تفسدها على هذا النحو؟ فيم كنت تفكر أيها السيد وأنت تكتبها ؟ وأى خاطر كان أولى بذهنك من عمل الدولة ؟

والتفت صاحب السعادة الى من حوله من رجال الحاشية ، فهزوا رؤوسهم هزة أسف عميق حتى خيل الى اننى أحدثت الحدث الذى لم يسبق من قبل، وسمعت – من خلال الضباب الذى غشى سمعى وبصرى – قائلا منهم يقول :

– يالك من مهمل يجر علينا اهمالك أشد المتاعب !

ففتحت يدى ، أهم أن أقول شيئا على سبيل الاعتذار ، ولكنى لم أدر ماذا أقول ، فسكت وأن ظل فمى مفتوحا ! واعترانى خجل شديد وفزع حتى لقد فكرت فى الفرار ! ولكن أنى لى أن أفر وأنا كالفأر بين عشرات الهررة الواعية !

وحدث فى هذه اللحظة ، وأنا أغالب فكرة الفرار ما ارتعد له الآن فرقا حتى ليكاد القلم يسقط من يدى ! فقد سقط زر من أزرار كسائى المعدنية ، كان معلقا بخيط واحد واه ، ويظهر اننى لمسته بيدى فانفلت وسقط على الارض ، وجعل يقفز ويتدحرج محدثا صوتا خالته أذناى دوى مدفع أو أهول وقعا . .

وهل تدرين أين اختار هذا الزر اللعين أن يستقر ؟ بين قدمى حضرة صاحب السعادة المدير العام . . فكأن سقوط هذا الزر، واستقراره بين قدمى سعادته هو كل ما استطعت تقديمه لسعادته من العذر عن خطئي الجسيم . .

وكأنما نبه هذا الزر سعادة المدير العام الى بشاعة مظهرى ، فجعل يصعد بصره فى . وكأنما أفقدتنى نظرته الفاحصة بقية عقلى ، فانحنيت لالتقط الزر ، ولكن الزر اللعين جعل يفلت من

أصابعي ويدور ويتدحرج ،وأنا الاحقه في اصرار ، وقد زودتني الخيبة اضطرابا على اضطراب٠٠ فدارت الحجرة من حولي ،وجعلت أصوات غامضة تطن في أذني ،وخيل الى اني أسمع فالدوني خادم البيت وهو يهزأ بي ساخرا٠ وشعرت أن كيـــاني الرسمي والانساني كله قد أهدر ، وانني قدمت موتا مدنيا ٠

وأخيرا استطعت القبض على الزر المشئوم ، فرحت أحاول في بلاهة شديدة أن أعيـده سيرته الاولى في موضعه من كسائي ، كأن ذلك أمر في المقدور ٠٠

وجعل المدير يحملق في برهة ثم التفت الى رئيسي المباشر وقال له :

ـ ماهذا ؟ ألاترى كيف يبدو؟ ماذا به ؟

فقال الرجل :

ـ انه لم يتقدم بأي تظلم من سوء حاله ، وهو يتقاضى مرتبا عادلا بحسب القدر القانوني ٠٠ أما مسلكه في العمل خلال خدمته الطويلة فمسلك نموذجي ٠

ـ أليس في المقدور مساعدته بشيء ٠٠ ولو بقرض يحسب من مرتبه مثلا ٠٠

ـ لقد قبض مرتبه جملة شهور سلفا ٠٠ ويظهـر انه يعاني مشاكل خاصـة تسبب له عناء كبيرا ،فصفحة خدمته نقية خالية من مثل هذا الخطأ ٠

وكان الدم يندفع الى وجهي وأنا أسمع هـذه المناقشة التي تدور حـــول عملي ، وحـــول خصوصياتي ، حتى كأن لفحة من نار السعير قد ناشت وجهي٠٠ فتمنيت لو وافاني الموت وأنا في مكاني ذاك ٠

فلما انتهى هـذا الحوار الهامس ، قال سعادة المدير بصوت عال :

ـ أعدوا صورة أخرى من هذه الوثيقة ، وبغـاية السرعة !

وانت ياديوفشكين تعال هنا الى جوارى .. أعد كتابة هذه الوثيقة ولا تخطىء فى النقل هـذه المرة ٠٠ وبهذه المناسبة ٠٠

ثم التفت الى جميع من حـوله ، فألقى الى كل واحـد منهم أمرا عاجلا ، فانصرفوا مسرعين ، حتى بقيت معه وحدى ، فأخرج حافظة نقوده قدم لى منهـا مائة روبل وهو يقول لى :

ـ هذا ما أستطيع اعطاءك يا صديقى ، فخذه ولا تتحرج ، فهو قرض ترده لى متى استطعت .

ودس الورقة فى يدى ، وأنا صامت لا أستطيع نطقا ، وان كانت كل جارحة من جوارح بدنى ترتجف ارتجافا شديدا ٠٠ فانحنيت على يده أهم أن أقبلها ، فتضرج وجهه بحمرة قانية وشد على يدى وهزها هزة ولى حميم ، كما يفعل الأكفاء ٠ ٠ فشعرت كأننى كبرت بعـد صـغار ، وارتفعت بعـد اتضاع . ثم قال لى فى لطف :

ـ امض الآن ياصاحبى ، فقد فعلت لك ماوسعنى ، وتحرز من الخطأ فى المستقبل . أما هذه المرة فعفا الله عما سلف ..

لقد رد الرجل على ما ضاع من كرامتى وشجاعتى الادبيـة وتقـديرى لنفسى ، ورد على أيضـا أسباب العيش وصلاح الحال ٠

وهاك الآن ياأختاه ماقررته : سأطلب منك ومن فيـدورا أن تذكرا سعادة المدير فى صلاتكما كل يوم ٠ ذلك حقى عندكما ، حق الوالد على بنيه ، فأنتما لى بديل من الاسرة والولد ٠ ٠

وأى عجب فى هـذا الطلب ؟ ألست كنت ميتا فأحيا موات نفسى ، وكنت هينا فرفع قدرى وأعلى رأسى ، وكنت مضيعا لاألم على أشتات فكرى فرفع عنى هذه اللعنـة ، وكنت سيىء الظن بالناس ، وسوء ظنى بالناس يحزننى فوق حزنى لسوء حالى ، فأعاد الى الثقة بالناس ، وبالخير ، وبأصبع العنـاية التى كنت أفتقدها فى شئون البشر ؟ ٠٠

***

عفوك ياأختاه اذا كنت قد أطلت ، فانى أحس فى نفسى اضطرابا شديدا . وماظنك بمن فقد البصر ففتحت عيناه فجأة على النور فى وهج الظهيرة ؟

ان قلبى يكاد ينشق من شدة الخفقان ، ويكاد يطير عن أضالعى لكثرة مايقيمه الفرح ويقعده .. وأحس الى جانب هذا خدرا فى أعضاء جسمى وتفككا فى أوصالى ، كشعور المرء حين يقطع مرحلة طويلة وهو راجل ، حتى اذا بلغ مراده أحس بما شغلته الرحلة عن الاحساس به من التعب والنصب .

وانى أرسل اليك مع هذه السطور خمسة وأربعين روبلا ، وسأعطى لربة البيت عشرين روبلا ، وسأصلح شأن ثيابى بعشرين روبلا مثلها ، ويبقى لى بعد ذلك خمسة عشر روبلا لنفقة طعامى وما اليه ..

أما الآن فسآوى الى فراشى ، لعلنى استجم من هذه الهزات التى توالت على فى نقائضها العنيفة هذا الصباح ..

وسأجتهد فى زيارتك قريبا ، أما الآن فما أرانى أصلح لذلك ، لأن مابى هو السكر ولا خمر ، فما تلم جارحة منى بجارحة الا بجهد جهيد .

وأختم رسالتى ياأختاه بشكر الله ، فانه حقا هو العزيز الحكيم ، السميع العليم ، الرحمن الرحيم ..

وانى لك يايمامتى المعبوده

الولى الصادق الحميم
مقار ديوفشكين

١٠ سبتمبر

عزيزى العزيز مقار ،

أسعدنى ماأسعدك من حسن الطالع ، وان مديرك ياصديقى لأهل لكل صالحة وكل شكران .. والحمد لله الذى أتاح لك

شيئا من هدوء البال بعد الذي عانيت من العناء هـذا الزمن الطويل .

ولكنى استحلفك بالله، وبكل عزيز لديك ، ألا تعود الى بسط يدك والتبذير فيما لالزوم له ، وعليك بالقصد فى النفقة ماوسعك القصد ، وأقنع بعيش الكفاف، ذلك أجمل بك وأحسن عقبى ..

واجعل همك منذ اليوم أن تدخر شـيئا من دخلك ، حتى لاتعود الى ماكنت فيه من ضائقة تسقط المروءة وتريق ماء الوجه اذا حزبك أمر من الامور على غير انتظار ..

أما أنا ياصـديقى ، فـلا تجشم نفسـك معاناة ما يكتنف حياتى من الشـدائد ، وماكان ينبغى أن تبعث الى بهذا المبلغ الجسيم ، فلست أطمع فى شيء ليس عندى ، وأنا بحياتى راضية والحمـد لله . . وليس للمال عندى نفع الا فى النقلة من هذا البيت ، ولكن فيدورا ستقبض عن قريب مبلغا متجمدا لهـا يكفى لهذا الغرض وزيادة ..

وانى أحتفظ مع هذا من هديتك بعشرين روبلا ، وأرد اليك الباقى شاكرة لك شـعورك النبيل ، ومكررة على سمعك نصـحى أن تقتصد فى نفقاتك ، وألا تبسط يدك كل البسط .

وكنت أود أن أسترسل فى الكتابة اليك بهـذه المناسـبة السعيدة ، لولا ماأشعر به من الضعف الشـديد ، فقد لزمت بالأمس فراشى ولم أبرحه طول النهار . . وهأنذى اليوم أحس بالتعب ينهك قواى .

لاتنس وعـدك لى بالزيارة ، فأنا فى الانتظار ..

برباره

١١ سبتمبر

عزيزتى العزيزة !

استحلفك بالله ياعزيزتى وأضرع اليك وأتوسل ألا تتخلى الآن عنى ، وقد بدأت المقادير تبتسم لى ٠٠ أم تأبين الا الكدر، وقد صفا العيش وطاب ما كان خبيثا من مهاد القدر ؟ ٠٠

يمامتى !

لاتعيرى فيدورا سمعك ، وثقى اننى سأكون طوع بنانك ، وعند أمرك ، ولكن لاتتركينى وحيدا فى الظلام يانور أيامى ٠٠ سأتحرى الاستقامة وسمت اللياقة والكرامة حتى ترضى عنى ٠٠ وستستمر الرسائل بيننا سفيرا أمينا ينقل أفكارنا وخواطرنا ، ويوثق مابيننا من صداقة طاهرة ٠ ولكنها ستكون منذ اليوم رسائل صفاء لارسائل أحزان وارزاء ٠ ٠ وسنكون صديقين فى السراء كما كنا صديقين فى الضراء ٠ ٠ أم تأبين على تمام النعمة ، وتسعين الى تحسرى على أيام المسغبة والفاقة ، لأنها كانت تجمعنا فى عروة وثقى ؟

هل لديك مايكفيك من الخشب ، فالبرد شديد فى المساء ، ولا تؤمن غدرات هذا الجو المتقلب ، وأخشى أن تصيبك نازلة من نوازل البرد ٠٠

آه يا فارينكا ! لو تعلمين كم أنتفض فرقا وفزعا لمجرد تفكيرى فى احتمال مرضك ، انى حرى أن أموت حزنا لو أصابك مكروه يا فارينكا ..

ولو سمعتنى أصلى يافارينكا، لعلمت كيف أدعو لك الله من كل قلبى وكيف ابتهل اليه أن يبقيك لى ٠٠ والحق اننى لا أصلى الا من أجلك ، ومن أجل سعادة المدير ، بارك الله فى عمره !

وهل عندك جوارب من الصوف ؟ خبرينى الحقيقة ، فصحتك أثمن شىء فى الوجود ٠٠ ولا تتحرجى من التصريح لى بما ينقصك يا أختاه ٠

. . .

لقد مضت أيام النحس الى غير رجعة ..

تناولت اليوم خطاباتك جميعا، فقبلتها ، واحدا واحدا ، لأنها كانت عزائى الوحيد فى أيام تعاستى ونكسى .. فلولاك يايمامتى لقضيت يأسا وأسفا..

والآن وداعا ياأختاه ، فقد وصفوا لى كساء جديدا ، أعنى انه فى حكم الجديد ، وانى ذاهب من توى لمشاهدته ..

صديقك الصادق الولاء

مقار ديوفشكين

عند صفو الليالى

١٥ سبتمبر

عزيزى السيد مقار !

انى اليوم فى أقصى حالات الاضطراب والحيرة ، فقد جاءتنى أنباء تحمل فى طواياها الهول لى فالسيد « بيكوف » ـ وأنت تعلم تاريخه المشئوم معى ـ موجود فى بطرسبورج ، وقد لقيته فيدورا بالامس . فلما رآها وقف عربته ودنا منها ، وسألها عن مقامها الآن ، ودقق فى تحرى العنوان .

وقد رفضت « فيدورا » أن تعيره العنوان أول الامر ، ولكنه عرض بى تعريضا ساخرا ، فلم تطق المسكينة صبرا ، وراحت تمطره فى وسط الشارع وابلا من الاتهامات ، وجابهته بما سببه لى ـ أنا اليتيمة المهيضة الجناح ـ من الكوارث والاحزان .

وانصرفت فيدورا راجعة الى البيت ، وروت لى ماوقع بينهما ، فاستخلصنا من كلامه انه لايعرف مقرنا ، وحمدنا الله على ذلك ..

ولكن ماكدت أخرج ساعة الاصيل الى السوق ، حتى دخل حجرتنا فقد سأل « أنا فيودروفنا » وعرف منها العنوان ، ثم عنى بدراسة المنطقة وأحوال سكانها قبل أن يطرق بابى .

وبعد أن قلب بين يديه بعض الملابس التى أحيكها وأطرزها ، سأل فيدورا بغير مقدمات ذلك السؤال المباغت :

ـ من هذا الموظف الذى تربطكما به كل هذه الصداقة المتينة الاسباب ؟

واتفق مرورك فى هذه اللحظة عبر فناء الدار ، فأشارت فيدورا بسبابتها نحوك ، فألقى عليك نظرة خاطفة ثم ابتسم ! فرجته فيدورا حينئذ أن ينصرف ، لان الاحزان والاشجان تضنينى ، وصحتى لاتسمح لى بمثل هذا الموقف العصيب اذا أنا عدت قبل انصرافه ورأيته فى حجرتى ..

فسكت لحظة ثم قال انه ماجاء لغاية ، بل لمجرد الزيارة ، ثم عرض على فيدورا خمسة وعشرين روبلا ، فرفضت قبولها بطبيعة الحال .

فما معنى هذه الزيارة ؟ وماذا يريد منا ؟ وانى لاعجب كيف تبلغه أخبارنا ، فهو فيما يلوح عليم بأحوالنا كافة ؟ ..

انى لحائرة وأخشى أن يعود الى مثل هذه الزيارة فى حضورى .. وما أشد جزعى لمجرد التفكير فى هذا الامر .. فعندما روت لى فيدورا ما حدث عند عودتى ، انتابنى الذعر ، وأوشكت أن يغشى على فزعا !

ماذا يريد بى أولئك الناس بعد الذى أحدثوا فى حياتى من الاضطراب ؟

انى لاأريد أن أعرفهم ، ولا أحب أن يذكرنى بهم مذكر ، وان كان النسيان والسفاه من رابع المستحيلات ! ..

لقد اضطربت أعصابى وأفلت منى زمامها ، وبت أتوهم فى كل لحظة انى سأراه ماثلا أمامى .. ولست أدرى ماذا سيحدث لى لو أن هذا وقع فعلا ..

ترى ماذا يخبىء لى القدر بعد الذى كان منه فيما سلف من الدهر ؟

أتوسل اليك بحق السماء أن تخف لزيارتى أيها الصديق .. تعال ، فانى أحوج ماأكون الى قربك

بربارة

١٨ سبتمبر

أختى العزيزة !

وقع فى بيتنا اليوم حادث من أعجب الحوادث وأدعاها للحزن والاسى .

أنت تعرفين جورشكوف ، الموظف المفصول ذا العيال ،

الذى مات ولده منذ شهور ، وأعياه أن يقوت من بقى منهم .. هذا الرجل المظلوم قد أنصفه القضاء أخيرا ، بعد أن استنفد جهد البشر والملائكة فى مغالبة الجوع . . وحكمت المحكمة له أمس بتعويض كبير .

وذهب الرجل اليوم الى المحكمة ليسأل عن نتيجة الحكم ، فزفوا اليه هذه البشرى ، فعاد الى البيت فى الساعة الثالثة بوجه شاحب فى بياض الثلج ، وكانت شفتاه تختلجان اختلاجا لا ارادة له فيه ، ولا حيلة له فى رده عنهما . . ولكنه مع هذا كان يبتسم ابتسامة يسهم فيها كيانه كله ، على ما به من اكفهرار وتخاذل . . .

وقبل الرجل زوجته وولديه ، وأسرعنا كلنا الى حجرتهم لنزف اليه التهنئة الحارة على هذه النعمة الطارئة ، التى أنقذته من العوز ، وانتشلته من المذلة ومسحت عن جبينه ما كان عالقا به من وصمة التدليس . .

وسر المسكين بتهنئتنا ، حتى لم يكن يدرى كيف يشكرنا ، فجعل يحيى باليمين والشمال ، ويشد على يد كل واحد منا أكثر من مرة واحدة ، لفرط ما به من اضطراب وذهول ..

وخيل لى أن السعادة التى جاءته على يأس قد أطالت من قامته ، ومدت من هامته ، فانتصب عوده بعد تطامن .. وبدا لى أن الدموع التى كانت تنهل دواما من عينيه قد انقطع مسيلها ..

أما حديثه فكان نشازا لا تلم منه عبارة بعبارة ، وأما حركاته فكانت نزغات لا ضابط لها ولا هدف ، يتناول الشىء لغير داع ، ثم يلقى به من يده لغير سبب ، ويقوم ويقعد ، ويشكر ويتحسر . ثم انطلق بغتة يبكى بكاء مرا ، فما بقيت عين فى الحجرة الا ذرفت دمعها رقة لهذا المسكين .. ولما هم أحد السكان بالتسرية عنه ، وأخذ يربت على كتفيه مواسيا ، نحى يده عنه بحركة تفيض أنفة ، لم أكن أعهدها فيه والحق يقال من قبل ..

شد ماتغير الظروف من أحوال الناس وخلائقهم ياأختاه !..
لقد طلبت امرأته من ربة البيت غذاء ممتازا لذلك اليوم وانصرفنا الى حجراتنا .. فراح جورشكوف يدخل عند كل واحد منا برهة ، يثرثر فى غير محصل ، لمجرد الحركة والكلام ، الى أن يحين موعد الغداء ، وما كان يدخل حجرة أحد من قبل ..

فلما تم اعداد الطعام ، أقبلت عليه تلك الاسرة التى طال بها الحرمان اقبالا متوقعا مفهوما . فلما انتهوا منه ، قال الرجل لامرأته :

ـ أريد أن أستريح الآن قليلا .

ثم استلقى على الفراش ، ونادى اليه ابنته فداعب بأنامله شعرها الاثيث ، ثم التفت الى امرأته وسألها :

ـ وباتنيكا ياامرأة ، أين هو؟

فرسمت المرأة على وجهها علامة الصليب وقالت له فى ذعر:

ـ بانتيكا مات كما تعلم ..

فابتسم وقال :

ـ أجل ، أعرف هذا ، فهو الآن فى ملكوت السموات !

وأدركت المرأة ان المفاجأة السارة هزت أعصاب الرجل ، فقالت له :

ـ أرى لك أن تنام قليلا حتى تستريح أعصابك شيئا ما .

فاستدبرها وسكنت حركته برهة ، ثم التفت اليها ثانية وحرك شفتيه بشىء لم تتبينه ، فسألته :

ـ ماذا ياعزيزى ؟

بيد انه لم يجبها ، فاستأنت برهة ، فلما لم يقل شيئا علمت انه نام ، فقامت لزيارة ربة البيت وقضت معها فى الحديث ساعة قصيرة ، ثم عادت الى حجرتها ، فأدهشها أن تجد زوجها لايزال حيث تركته نائما لم يتحرك فى رقدته ، فعزت ذلك الى ثقل النعاس ، وتناولت خيطا فجعلت تغزله نحوا من نصف الساعة ..

تنبهت بعدها من شرود اعتراهافاستغرقها وهى تغـزل ، فاذا الرجل على حاله الاول ..وراءها الصمت الثقيل الذى يسـود الغـرفة ، فاقتربت من الفراش وكشفت عن زوجها الغطاء .. فاذا هو قد مات !

شبد ماهصرت قلبى هذه الميتة المباغتة .. كأنما كلفته نصفته أنفاس حياته ، وكأنما حرام على المظلوم المكروب أن يعرف لغير الغبن والفاقة طعما ..

يابئس للدنيا ! أكذلك يمضى الناس عنها بـين غمضة عين وانتباهتها ؟ ألا أمان فيها لشىء، ولاضمان لديها لامر ..

هل حقا يموت الناس هكذا ، بغير مقدمات ، وعلى غير انتظار ؟. انى لحزين ..

مقار ديوفشكين

ثمالة الكأس

٢٣ سبتمبر :

صديقى الاعز :

طال عهدى بعدم الكتابةاليك،فقد حدثت شواغل حالت بينى وبين ما كنت اريده من الحديث اليك على صفحات القرطاس !

فأمس الاول زارنا « بيكوف » ، وكنت وحدى هذه المرة ، لان فيدورا كانت قد خرجت الى السوق .. ففتحت أناالباب حين طرقه ، فما وقع عليه نظرى حتى صعقت ولم أحر نطقا ولا حراكا ، فدخل وهو يقهقه بالضحك على مألوف عادته ، وتناول مقعدا فاستوى عليه دون انتظار دعوةمنى .. وبقيت أنا مسمرة عند الباب برهة ، ثم لذتبركن قصى ، وراء مائدة الحياكة ، وانصرفت الى عملى ، وقد علت الصفرة محياى !

فجعل يتفحصنى بنظره ، ولا شك انه وجدنى قد تغيرت كثيرا عما عهدنى منذ بضع سنين .. ثم أخذ يبادلنى حديثا سهلا ، يخالف بين عباراته بالدعابات والضحكات العالية ساعة من الزمن . فلما هم بالانصراف تناول يدى بين يديه ، وقال لى بالحرف الواحد :

ـ أرانى يا بربارة مضطرا الى الاعتراف لك أن « آنا فيدروفنا » قريبتك وصديقتى ، امرأة تستحق كل زراية ونكال ..

ثم نعتها نعتا لا استطيع كتابته اليك ، لانه مما تنبو عنه الاسماع .. واستطرد قائلا :

ـ لقد أودت بشرف ابنة عم لك ، وأفسدت حياتك ، وكنت أنا فى الحالين نذلا خسيسا .. ولكن هذا قضاء جار على الاكثرين ولست فيه فريدة ..

ثم انطلق يضحك ضحكته المدوية ، واعتذر لى بأنه رجل أعمال لا يحسن الكلام ، وان مراده من هذا الحديث ان يبين لى

حسن نواياه ، ويقظة ضميره !

وانتقل من ذلك الى مباغتتى بطلب يدى .. !

— انى رجل موسر ، وأرى من واجبى أن أرد عليك بالزواج اعتبارك وشرفك الذى شاركت فى اهداره ..

وراح يطنب لى فى وصف مزارعه التى ينوى الاخلاد اليها بعد الزواج ، ليتفرغ للصيد والقنص .. وانجاب ذرية صالحة ترث اسمه وثروته من بعده .

وعرج بعد ذلك على ما يراه من سوء حالى ، وفاقتى ، واضمحلال صحتى .. وسألنى عن حاجتى من المال ليقضيها لى ..

وكان هذا العرض المباغت قد هز مشاعرى هزا عنيفا ، فانطلقت أنشج بالبكاء دون أن أدرى لبكائى سببا ، فظن اننى أبكى شكرا له وعرفانا لجميله الذى يسديه الى بذلك الزواج فجعل يقول لى باسما مترفقا :

— لقد كنت فى ظنى على الدوام فتاة كريمة النفس طيبة القلب مثقفة ذكية ، ولكنى لم أشأ أن أقدم على هذه الخطوة قبل ان أتثبت من استقامتك ، وحسن مسلكك ، على رغم ما تعانينه من شدة وضيق ..

ثم شرع يلقى على أسئلة شتى عنك ، فلما أجبته قال :

— انى واثق من صدق قولك ، فقد سألت عن هذا الرجل فقيل لى انه رجل مهذب وذو خلق .. وتأكدت أنه أحسن القيام على شأنك وصيانة شرفك ، ولست أحب أن يثقل دينه هذا على عنقى ، فاستخبريه هل تكفى خمسمائة روبل لتعويضه عما تجشمه فى سبيلك من مشاق ..

فلما قلت له ان خدماتك لى من طراز لا يمكن أن يقدر بمال ، استشاط غضبا وجعل يتهمنى بالبلاهة والخرق .. !

وانصرف بعد ان اوصانى بالتفكير فيما عرضه على من امر

الزواج ، فهو لا يحب القرارات المتسرة فى مثل هذه الشئون الخطيرة .. فاذا راق لى الزواج منه فبها ونعمت ، والا فانه سيكون فى حل من الزواج بامرأة من أهل الثراء والتجارة الواسعة فى موسكو ..

ودس فى يدى قبل انصرافه خمسمائة روبل ، فلما أبيت أن آخذها قال :

ـ بل خذيها لتشترى بها شيئا من الحلوى تتسلين بها فى سهرك .. وانتظرى حتى تتزوجينى ، وسترين حينئذ كيف يصير لك الشحم واللحم بعد الهزال والدوار ..

***

وقد فكرت ياصديقى فى حديثه كثيرا ، حتى أنهكنى التفكير ثم انتهيت الى قرار أخير ..

وذلك القرار يا صديقى هو القبول ..

وهل أمامى غير هذا الطريق اذا أردت استرداد اعتبارى ومحو العار عن شرفى .. ؟ انه الرجل الوحيد فى هذه الحياة الذى فى وسعه أن يرد الى كرامتى العذرية التى أهدرها ..

ثم لا تنس أن زواجى به سيقيلنى من وهدة الفقر ، ويؤمن مستقبلى ، ذلك المستقبل الاسود الذى يطل برأسه من ثنايا الحاضر الاغبر ..

وفيدورا تلح على فى القبول .. فهى فرصتى الفذة لانقاذ شرفى ، وانقاذ صحتى وضمان عيشى كذلك .. وليست مسألة الصحة من الهينات ، فأنت يا صديقى تعرف ضعف بنيتى فالعمل ينهكنى ، ولابد لى من العمل كى أعيش كما تعلم ..

واذا أفلتت هذه الفرصة الشريفة ـ ولاأقول انها مشرفة! ـ فمن عساه يتقدم لطلب يد فتاة يتيمة فقيرة تنوشها العلة وتفسد نضرتها .. ؟ !

الحق يا صديقى ان الامر لا خيرة لى فيه .. وانما هو

طريق واحد . وقد عولت على سلوك ذلك الطريق ..

واذا كنت لم أطلب اليك الادلاء برايك فى هذا الامر ، فذلك لانى آثرت أن أحمل تبعة البت فيه وحدى .. وسأبلغ بيكوف قرارى هذا منذ اليوم ..

ولست غافلة عن جميع جوانب الموضوع الذى قطعت فيه برأيى .. فأنا عالمة تمام العلم أنى لا أحب بيكوف ، وانه لا يحبنى .. ولكنى مقدرة انه يقدرنى ، وقد تبث له المعاشرة التقدير فى قلبى ، لانه فيما يقال رجل طيب شهم .. وهل أطمع فى أكثر من مودة وتقدير متبادلين .. ؟ ذلك حسبى يا صديقى من حظوظ الحياة ..

وانى واثقة من انك ستقدر الموقف حق قدره ، وستنظر اليه بما عهد فيك من الايثار النبيل .. فلا تحاول اثنائى عن عزمى فقد تألمت كثيرا لفكرة فراقك ، ولكنى وجدت العقل والحزم فى جانب القبول ، فاخترت جانب الحزم والعقل ، مطمئنة الى نبلك المعهود ..

هاهوذا بيكوف قد حضر ، فأجتزىء الآن بهذا القدر ، لانه مصر على عقد الزواج فى بضعة أيام ، فأعماله لاتسمح له بالبقاء هنا طويلا ..

بربارة

٢٣ سبتمبر :

أختى بربارة .. !

أتعجل الكتابة اليك فور وصول خطابك ، لاقول لك انه وقع منى موقع الدهشة الشديدة .. فلا شك أن بيكوف قد سلك المسلك الذى يقتضيه الشرف ، ولكن هل كان ينبغى أن تقبلى الزواج منه بهذه السرعة ، ولا أقول هذه اللهفة ؟

ولا شك عندى أيضا ان بيكوف يريد بك الخير ، وانه سيكون رفيقا بك ، وانك ستسعدين يا يمامتى وملاكى ،

بما يتهيأ لك من اليسر والرفاهة وخفض العيش ..

ولكن فيم هذه العجلة يا عزيزتى ..؟ الأن مشاغله تقتضيه التعجيل بالرحيل .. ؟

وان .. ! فليس فى العجلة خير ، لانها من حبائل الشيطان

عفوا ..! رأسى يموج كخلية من النحل ، فقد وارينا جورشكوف التراب صباح اليوم .. ونالنى من ذلك نصب وكمد شديدان .. فلا أدرى ماذا أرى ..أوماذا أقول لك فى هذا الامر الخطير ..

وانا يا يمامتى ، ألم تفكرى فيما يصيبنى من فراقك ورحيلك عنى .. ؟ ألست جديرا بجانب من تفكيرك يا أختى وملاكى ونور أيامى .. ؟

الامر لله ، ولك يا فارينكا .. !

ستتزوجين اذن عما قريب .. وسيلزمك ولابد أن تشترى أثوابا وأحذية وجوارب ، وما الى ذلك .. انى أعرف محلا يبيع أحذية للسيدات فى غاية الرشاقة ، كنت أشتهى أن أشترى لك منه حذاء .. فأوصيك به يا فارينكا .. انه فى شارع « جوروخوفايا » العظيم .. الذى رأيت فيه ذات ليلة عربات الاميرات والامراء .. تمنيت أن أراك فى مثل عزهن السابغ .. !

ولكن كلا .. ! هذا محال . ! محال أن ترحلى عنى هكذا سريعا وقد أشرقت أنوار اليسر فى حياتى بعد عسر طويل ..

تذكرى على الاقل انه يلزمك شراء كثير وكثير جدا من الاشياء فلابد من بعض الوقت نقضيه معا فى تجهيز هذه العروض وانتقائها ..

وهل تثقين بصدق فراسة فيدورا حين قالت لك انك ستسعدين فى حياتك الجديدة مع هذا الرجل .. ؟

لقد رأيته خارجا من لدنك ، وهو فيما أرى رجل ذو مهابة .. بل ان مهابته زائدة على الحداللائق ..

هل ستذهبين الليلة الى صلاة العشاء .. ؟ سأذهب أنا على أمل رؤيتك هناك ، فأرجوك أن تذهبى أنت أيضا ..

لقد صدق بيكوف حين قال أنك فتاة طاهرة ذكية الفؤاد سرية النفس راجحة العقل .. ولكنى أرى أنه كان خيرا له لو تزوج صاحبته الثرية ذات التجارة الواسعة فى موسكو ، فهى أقرب الى موافقته ..

سأنتهز فرصة الظلام لازورك ساعة قصيرة ، فلا بد لى من حديث معك يااختاه .. فانتظرى قدومى ..

مقار ديوفشكين

٢٧ سبتمبر :

صديقى العزيز ..

يصر بيكوف على أنأتزودبستة وثلاثين قميصا من الحرير الهولندى ، لا تنقص قميصا ! فينبغى أن أبحث لى عن قطعتين من ذلك الحرير ، تصلح كل قطعة منها لاثنى عشر قميصا أخرى غير تلك التى اشتريتهاأمس .. وأرجوك ان تسرع فى الحصول عليها ، لان الوقت قدأزف .. ! فسيتم الزفاف بعد خمسة ايام ، وسنرحل فى اليوم التالى ..

والحق أن هذه العجلة قد أضنتنى ، حتى لأوشك أن أسقط اعياء ، لولا ما امامى من الاعمال الكثيرة .. وتراودنى نفسى على الرجوع فى الزواج ، وبهذه المناسبة تنقصنى كمية من المخرمات (الدانتلا) للابسى الداخلية ، فلا تنس أن تشترى جانبا منها مع الحرير الهولندى

أشعر بالبرد فى هذا المسكن الجديد ، وأما عمة بيكوف العجوز فامرأة لا تطاق ، وكل شىء هنامختل النظام ، والخدم على

كثرتهم مهملون ، وكثيرا مايتغيبون دفعة واحدة ، فتضطر « فيدورا » الى القيام على خدمتنا بمفردها .. ولهذا يحيرنى كيف أبعث اليك بهذه السطور ، وأحسب البريد خير وسيلة فى الامكان ..

كدت أنسى أهم ما فى الخطاب ... مر بمحل الطرزى، وأوصه ان يجعل الطرز نقشا بارزا فى جميع القمصان ، لان بيكوف يصر على أن تكون ملابسى أبهى وأغلى ما تلبسه السيدات فى الناحية بأسرها ..

لا تنس شيئا من هذه التوصيات يا صديقى ، وأرجو الا تضيق بكثرة المهام التى استأديك اياها كل يوم .. فما حيلتى ؟ الوقت ضيق ، ولا بد من اتمام الجهاز فى بضعة ايام ، وكلما ظننت أننى انتهيت ، تذكرت أشياء كنت قد غفلت عنها ..

متاعب جمة ، واما العاقبة فعلمها عند الله ، ولا احاول استكناهها من بين أستار الغيب .. فليكن ياصاحبى ما يكون .

بربارة

بثم مـــاذا

٢٧ سبتمبر

عزيزتى السيدة بربارة !

لقد قمت بجميع ما أمرتنى به بكل دقة وأمانة ٠٠ وقد فوت هذا على موعد الديوان ، ولكن لا بأس ، مادام فى ذلك راحة لك من بعض ما يشغل بالك فى هذه الايام الحافلة بالمهام ٠

وثقى انى على تمام الاستعداد للقيام بكل ما تطلبين ، فلا تتحرجى من تكليفى بشىء ، ولو اقتضانى أن أذرع المدينة من أقصاها الى أقصاها ٠

تقولين انك تتوجسين من المستقبل ، ولا تحاولين معرفة ما يخبىء لك ٠٠ ونصيحتى اليك ألا تدعى التشاؤم ينفذ الى قلبك ، واطمئنى الى أن الله سيهيىء لك كل خير فى حياتك الجديدة ، فلا تقلقى ٠

كم أود أن أزورك فى مسكنك الجديد ٠ بل انى حاولت ذلك مرارا ، وبلغت فى مرتين منهما بالامس باب دارك ، ولكنى رددت نفسى عن الدخول فى آخر لحظة ٠٠ لأن هذا السيد بيكوف يبدو لى خشن الملمس !

مقار ديوفشكين

٢٨ سبتمبر

عزيزى السيد مقار !

أرجوك أن تذهب الى محل الجوهرى ، وقل له اننى عدلت عن صنع القرط المرصع بالياقوت واللؤلؤ ، فالسيد بيكوف يراه غالى الثمن وأعلى قيمة وأكثر بذخا مما ينبغى لنا ٠

ولو رأيت غضبته أمس لهذا السرف الذى يرمينى به ، فقد اتهمنى جهرة بالتآمر على افلاسه ٠٠

ثم اننى بعد ذلك يلوم نفسه على التورط فى هذا الزواج ، غير مقدر أنه فتح لماله بالوعة لا تعرف الشبع ٠٠

وقد حفزه هذا الغضب على الغاء كل ما كنا قد قررناه لحفلة الزفاف . فلن يدعو أحدا ، ولن يقيم مأدبة ولا حفلا راقصا ، وما هو الا أن يعقد العقد ، حتى نرحل من فورنا الى الريف .

هكذا يا صاحبى بات بيكوف يخاطبنى خطاب السيد الآمر الناهى ، ولا حول لى معه ولا طول .

ولعله نسى اننى لم أطلب شيئا من هذا الجهاز المترف ، ولم أقترح حفلا راقصا ولا مأدبة عشاء ، فما أزهدنى فى ذلك كله .. وانه هو الذى اقترح، وهو الذى استرد ما منح ..

ولكنى لا أجسر على تذكيره أو مراجعته اذا غضب، فهو رجل عنيف .

ترى كيف ستكون حياتى معه ؟

بربارة

٢٨ سبتمبر :

يمامتى بربارة !

لقد أبلغت الجوهرى ما طلبت لى أن أسوقه اليه من القول .

وأما أنا يا يمامتى فمريض لا قدرة لى منذ عدت الى البيت على مغادرة الفراش . وشد ما يسوؤنى هذا يا أختاه أن ألزم فراشى فى أشد أوقاتك حاجة الى خدماتى .

منذا الذى يقضى لك حوائجك وأنا طريح الفراش ؟

أشعر بثقل فى أطرافى ، وتصلب فى أوصالى وأصلابى ، وتداع فى قوتى ، وما أظنه الا بردا خبيثا مما يلم بى أحيانا .

كنت أود أن أسترسل فى الكتابة ، ولكنى لا أستطيع ..

مقار ديوفشكين

٢٩ سبتمبر :

بربارة ، يا صديقتى العزيزة .

لقيت اليوم فيدورا ، وعلمت منها ان زواجك سيعقد غدا ، وانك سترحلين بعد غد مع بيكوف ، وانه قد أعد العدة منذ اليوم

لتلك الرحلة ، فاشترى جيادا قوية وعربة فاخرة .
وقد راجعت « فواتير » المشتريات ، فوجدتها صحيحة ،ولكنها باهظة الارقام . ان هذا لا يبرر غضب بيكوف الذى صبه على رأسك . فما ذنبك انت وهو الذى أصر على شراء كل هذه الكماليات ؟
وفقك الله يا يمامتى ، وكتب لك السعادة .
وكنت أود الذهاب الى الكنيسة لحضور العقد ، لولا أن آلام المفاصل تقعد بى عن الحركة ..
وسرنى كثيرا ما علمته من فيدورا عن سخائك وبرك بها ، فهى تستحق كل خير ، وسيجزيك الله عن هذا البر الكريم خير الجزاء
فى النفس أشياء كثيرة لا أدرى كيف أسوقها اليك . وأولها هذه الرسائل التى عشنا بها ،وسأعيش أنا بها على الدوام .. من سيتولى أمر نقلها فيما بينناوقد بعدت بك الدار وشط المزار؟
عندى كتاب من كتبك ، أتوسل اليك ألا تسترديه .. وما بى من شوق الى القراءة كما تعلمين .. ولكن الشتاء يقترب، وليالى هذا الشتاء ستكون طويلة موحشة ثقيلة الوقع على نفسى ، وأنا أنظر من نافذتى فلا أرى النور يشرق لى من نافذتك .. أقصد ان هذا الكتاب قد يذهب عنى بعض ما سأجده من السأم فى ليالى الشتاء المقبل ..
أتدرين يا أختاه أننى فكرت فى حل بديع لمسألة سكنى ؟ سأحل محلك وأشاطر فيدورا ذلك الطابق ، وسأجعل مقامى فى غرفتك ، ولن أبدل من حالها شيئا .. فقلبى لا يطاوعنى على ترك فيدورا المسكينة فريسة للوحدة بعد رحيلك ..
لقد دخلت حجرتك السابقة أمس ، فرأيت كل شىء كما تركته : قطعا من القماش متناثرة فى كل مكان ، وآلة الحياكة فى موضعها ، وسريرك الصغير يا يمامتى خلف الستار .. وورقة فيها سطر واحد :

عزيزى مقار ديوفشكين ٠٠

وليس فيها غير ذلك السطر شىء ٠٠ وأحسب طارئا أزعجك عن اتمام ذلك الخطاب ٠٠

وداعا يا يمامتى ، ولا تبطئى فى الرد على خطابى ، لأن الانتظار أليم

مقار ديوفشكين

الصرخة الأخيرة

٣٠ سبتمبر :

صديقى العظيم .. !

قضى الله ولا راد لقضائه ، ونفذ السهم وسبق السيف العذل .. ! ذلك ياصاحبى كل ما أعرفه من أمرى ، أما ما سيكون ، فأنا مفوضة أمرى فيه لله ،وهو وليي ونعم النصير .

سنرحل غدا ياصاحبى ، فهذا وداعى الاخير اليك يا خير البشر نفسا واذكاهم قلبا . ويا من اذا عددت نعمك على ، وأياديك لا أحصيها .. فقد كنت أبى وقد يتمنى الدهر .. وكنت أمى وقد سلبنى القدر عطف الام ..

وأستحلفك بالله ألا تحزن لفراقى ، وانشد راحة بدنك وقلبك ما استطعت ، ولكن لا تنسنى أيها الصديق الكريم ..

أما أنت يا صاحبى فستكون شغلى الشاغل ، أدعو لك الله اذا صليت ، وأذكر بالخير عهدا كان أشأم العهود لولا عطفك وبرك ..

وانى موقنة يا مقار أن ما من انسان احبنى فى هذه الدنيا سواك .. فقد رأيتك تكترث لايسر همومى ، ولا ترى النور الا فى ابتسامة شفتى ووميض عينى .. وكانت عبارة واحدة اكتبها اليك تنسيك هموم الحياة، وتملأ بالغبطة جوانحك المطوية على النبل وحب الخير ..

ترى كيف ستكون ايامك ياصديقى الكريم من بعدى ؟ من سيسأل عن حالك اذا أصبحت أو أمسيت .. ؟

لقد تركت جميع رسائلك فى خوان فيدورا . فخذها ، واحتفظ بكل ماتجده فى غرفتى . ولا سيما الخطاب الذى بداته اليك ولم أتمه . احتفظ به ياصديقى ، لتتمه بعين خيالك كلما ذكرت ماضى أيامنا التى اصطلحت عليها الاحزان فلم تطفىء نور حبنا الطاهر ..

وداعا أبديا يا صديقى .. ! لقد وددت أن أراك قبل رحيلى، وان أقبلك أيها الاب والاخ والصديق ..

الا ما أكآب ساعة الوداع أيها الحبيب . . وما أثقلها على روحى المروعة لفراقك ..

هاهوذا بيكوف ينادينى . . فمعذرة ووداعا .. !

صديقتك الباقية على حبك

برباره

٣٠ سبتمبر :

ڤارينكا .. ! أختى ويمامتى ڤارينكا .. !

أخذوك منى يا يمامتى ، ومضوا بك الى حيث لا أراك ، ولا يبلغ بى الركاب .. فليتهم نزعوا حشاشة روحى قبل أن ينتزعوك منى هذا الانتزاع الوجيع .. ولكنهم تركوا روحى للعذاب ، ومضوا بك يا حبيبتى الى حيث لا أقدر أنا أن أمضى

لقد رأيت آثار الدموع على خطابك يا ملاكى .. فأنت اذن تبكين .. أنت اذن شقية بهذا السفر البعيد ، فلماذا اذن رحلت يا ملاكى .. ؟

لقد بكيت يا حبيبتى جزعا لفراقى ، واشفاقا على قلبى المدنف ، فأنت اذن تحبيننى يا ڤارينكا .. فكيف اذن تعيشين مع من لا تحبين .. ومن تحبين يقاسى أهوال البعاد .. !

سيشقى قلبك الطاهر الغض بهذه الحياة التى تتخمها أغذية الجسد ، وتنقصها أنسام الروح ، وليس بالخبز وحده يحيا الانسان ..

سيأكل السأم فؤادك ، وتضيق نفسك بهذه الوحشة ، ولن تجدى فى ذلك الفقر الروحى الا الهم والكمد ..

لماذا اخترت ذلك الطريق ايتها اليمامة .. ؟ لماذا ارتضيت الوقوع فى مخالب الصقر .. ؟ لماذا آثرت القبول فجنيت على

قلبك الجناية التى ليس مثلها جناية .. فانه لن ينتظرك فى ذلك المكان الموحش مصير سوى القبر البارد المظلم ، ولن تجدى هناك من يبكى شبابك الغض ، لان بيكوف لديه من شواغل المال والصيد ما يشغله عن الحب والبكاء ..

سحقا لى وتعسا .. ! ماكان أغبانى وأعمانى .. ! لماذا لم أحل دون هذا الزواج المشئوم .. ؟ كان ينبغى أن أقاومه بكل قواى .. ولكن سبق السيف العذل كما قلت .. ونفذ السهم وقضى الله ولا راد لقضائه ..

كلا .. ! بل يجب أن أرد ذلك القضاء ، غدا سأقوم من فراشى مهما كانت الحال ، وسألقى بنفسى تحت عجلات العربة كى أحول دون رحيلك الى ذلك البلد النازح ..

سأجرى وراء العربة ، سأعدو خلفها طول الطريق اذا أبيت أن تأخذينى معك الى هناك . . وسأظل أجرى حتى تفارق روحى جسدى ..

الى من ياحياتى سأكتب بعد اليوم رسائل أشواقى وخواطرى اذا جن الليل واجتوانى الصديق ..!؟

من سأناديها اذا حزبنى الامر « يا اختاه » فتطمئن روحى ، وتتبدد وحشتى ، ويطيب لى الرقاد .. ؟

أنت قاتلتى يا فارينكا بهذا الفراق ولا ريب ! فلن يصمد قلبى لهذا البلاء المبرح ، وقد كنت عاصمه قبل اليوم من القنوط والموت ..

من أجلك يايمامتى كنت أحيا .. فلماذا أعيش الآن .. ؟ ! وقد كنت لى الابنة والاخت والام الرؤوم ..

لا تسافرى يا فارينكا ، فالرحلة شاقة ، وصحتك معتلة ، والطقس ردىء .. هاهوذا المطر ينهمر ، فاياك أن ترحلى فى هذا البرد الشديد ..

رباه .. ! لماذا لم يتزوج بيكوف صاحبته الثرية فى موسكو فيتركك لى .. فأنا ليس لى فى الدنيا سواك .. انت نور أيامى فاذا ذهب النور فكيف أبصر الطريق ، وكيف أستطيع أن أعيش .. ؟

أمصرة انت على الرحيل مع هذا السيد بيكوف .. ؟

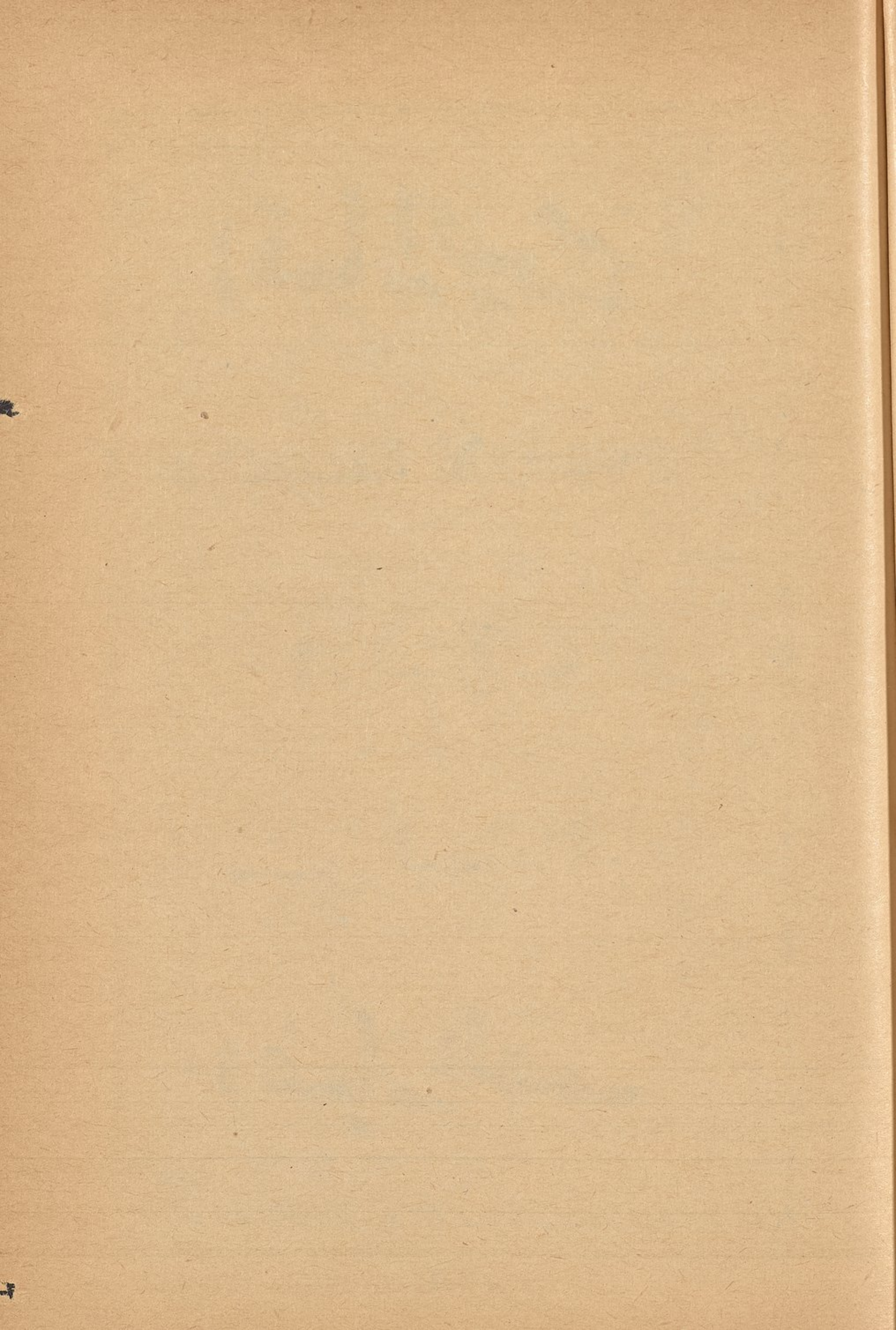
وا أسفاه .. !

اكتبى لى خطابا آخر يا قارينكا ، خطابا واحدا فقط ..

رباه .. ! كيف أصدق أن خطابها هذا هو الخطاب الاخير ، وان يوما سيمر بى دون أن أرى روحها مسطورة أمامى على صفحات القرطاس .. ؟

أهكذا انتهى كل شىء يا يمامتى وابنتى واختى وملاكى ؟ !

الا ما أهون الحياة ...



أخبار اليوم

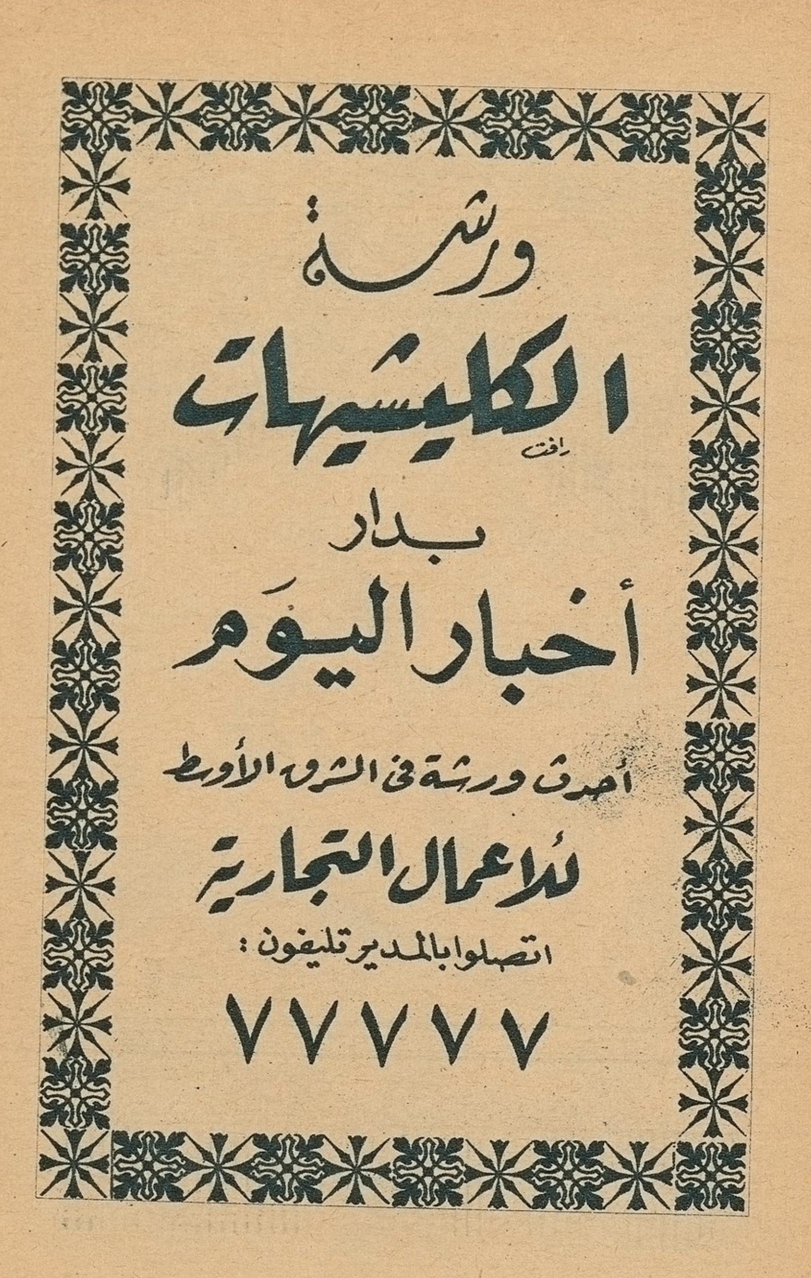
الجريدة الأولى

فى الشرق

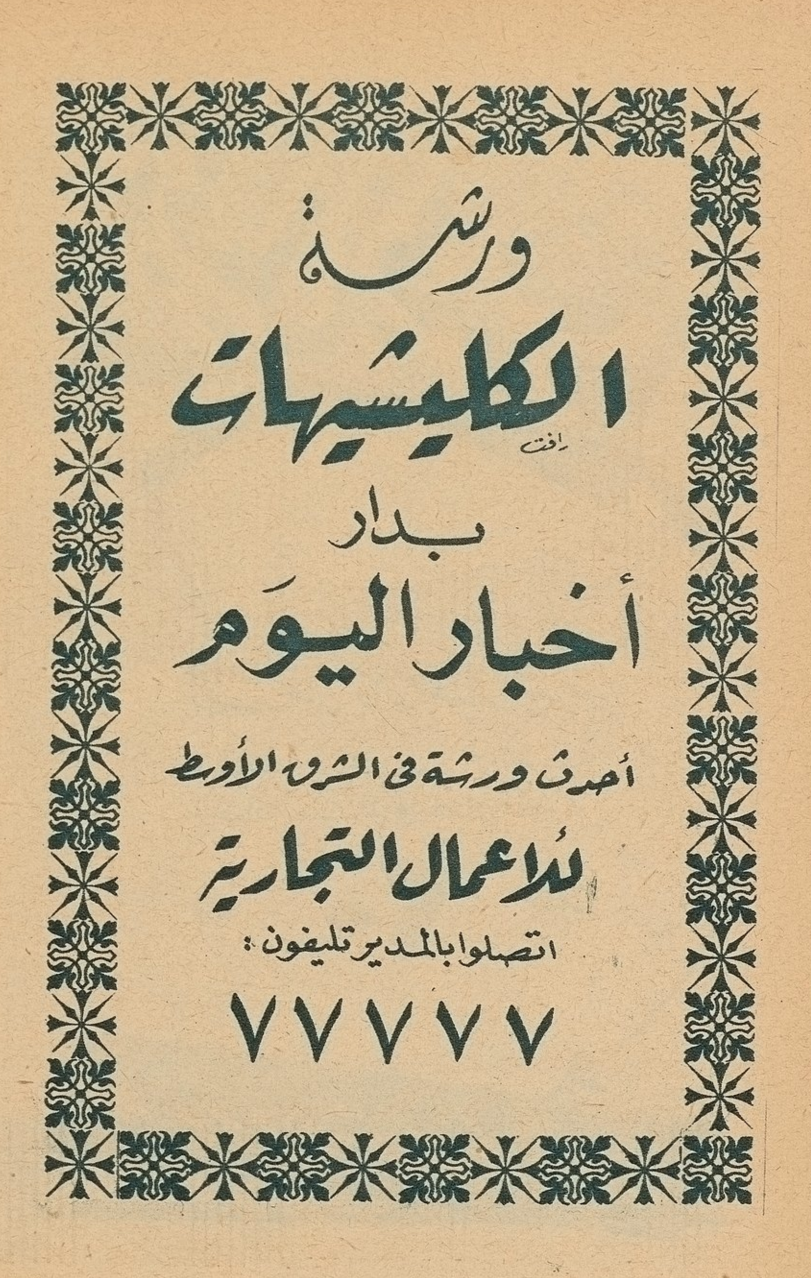
نقرأ فيها دائماً

أخبار الغد


أكبر
واحدث
مصانع
للصباغة
والطباعة
فى الشرق
شركة صباغى البيضا
شركة مساهمة مصرية


ورشة
الكليشيهات
بدار
أخبار اليوم
أحدث ورشة فى الشرق الأوسط
للأعمال التجارية
اتصلوا بالمدير تليفون :
٧٧٧٧٧


الجيل الجديد
تصدر عن دار أخبار اليوم
سياسة . فن . رياضة
أخبار العالم وأخبار مصر
الثمن ٢٠ مليماً
تصدر يوم الاثنين من كل أسبوع
افت


ورشة
الكليشيهات
بدار
أخبار اليوم
أحدث ورشة فى الشرق الأوسط
للأعمال التجارية
اتصلوا بالمدير تليفون :
٧٧٧٧٧



كل صباح
الاخبار
الجديدة
مطالبنا ظاهرة وواضحة
هى الجلاء ووالوحدة
تطبعها اعظم واسرع
مطبعة فى الشرق
وتصدرها دار اخبار اليوم

كتاب اليوم
صاحباه
مصطفى امين وعلى امين
رئيس التحرير
عبد العزيز عبد العليم
كتاب شهرى
يصدر عن
دار أخبار اليوم
الادارة والتحرير
والاعلانات والتوزيع :
شارع الصحافة
المراسلات :
صندوق بوستة رقم ١٠
تليفون ٧٧٧٧٧٧
عشرة خطوط

الاشتراكات
فى مصر والسودان ١٠٠ قرش
بريد عادى و ١٢٠ قرشا بريد
مستعجل - فى البلاد العربية
والبلاد الداخلة فى اتفاقية البريد
٢٥٠ قرشا بالبريد المسجل او
٣ جنيهات استرلينى وواحد
شلن و ٦٫٥ بنس - فى البلاد
الخارجة عن اتفاقية البريد ٤٥٠
او ٢٥ دولارا بالبريد المسجل

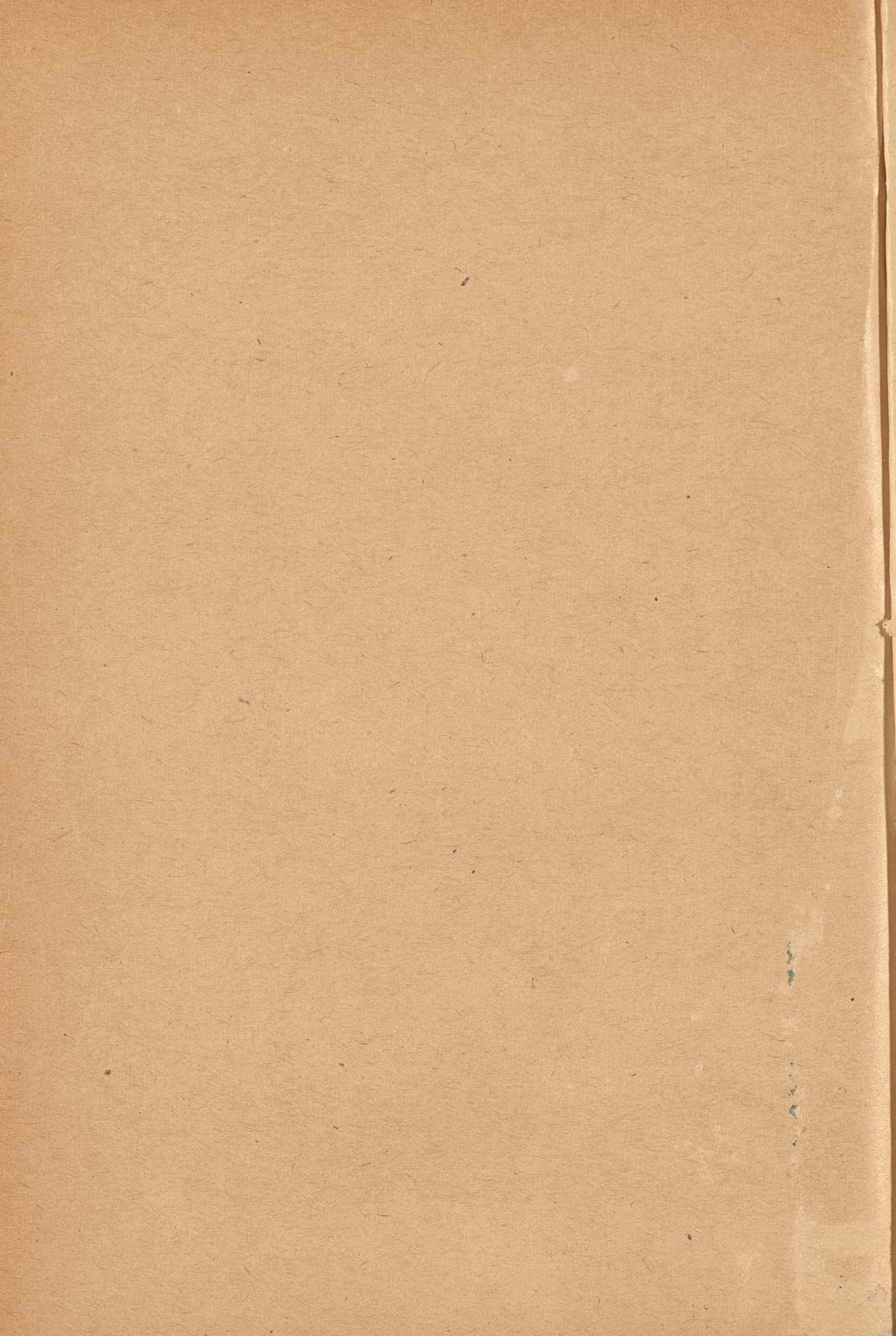
كتاب اليوم الجديد

٣ سبتمبر

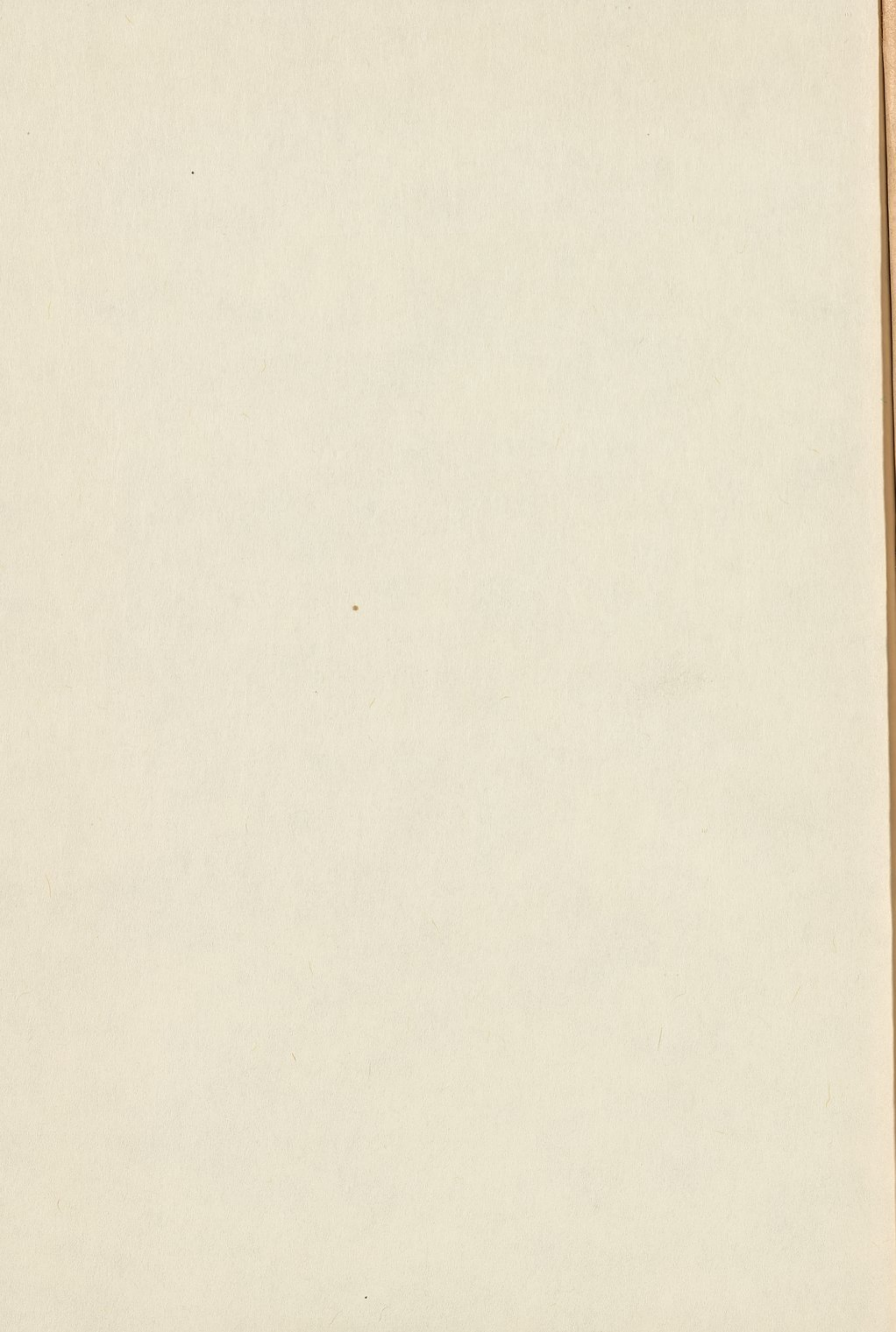
المرأة الجديدة

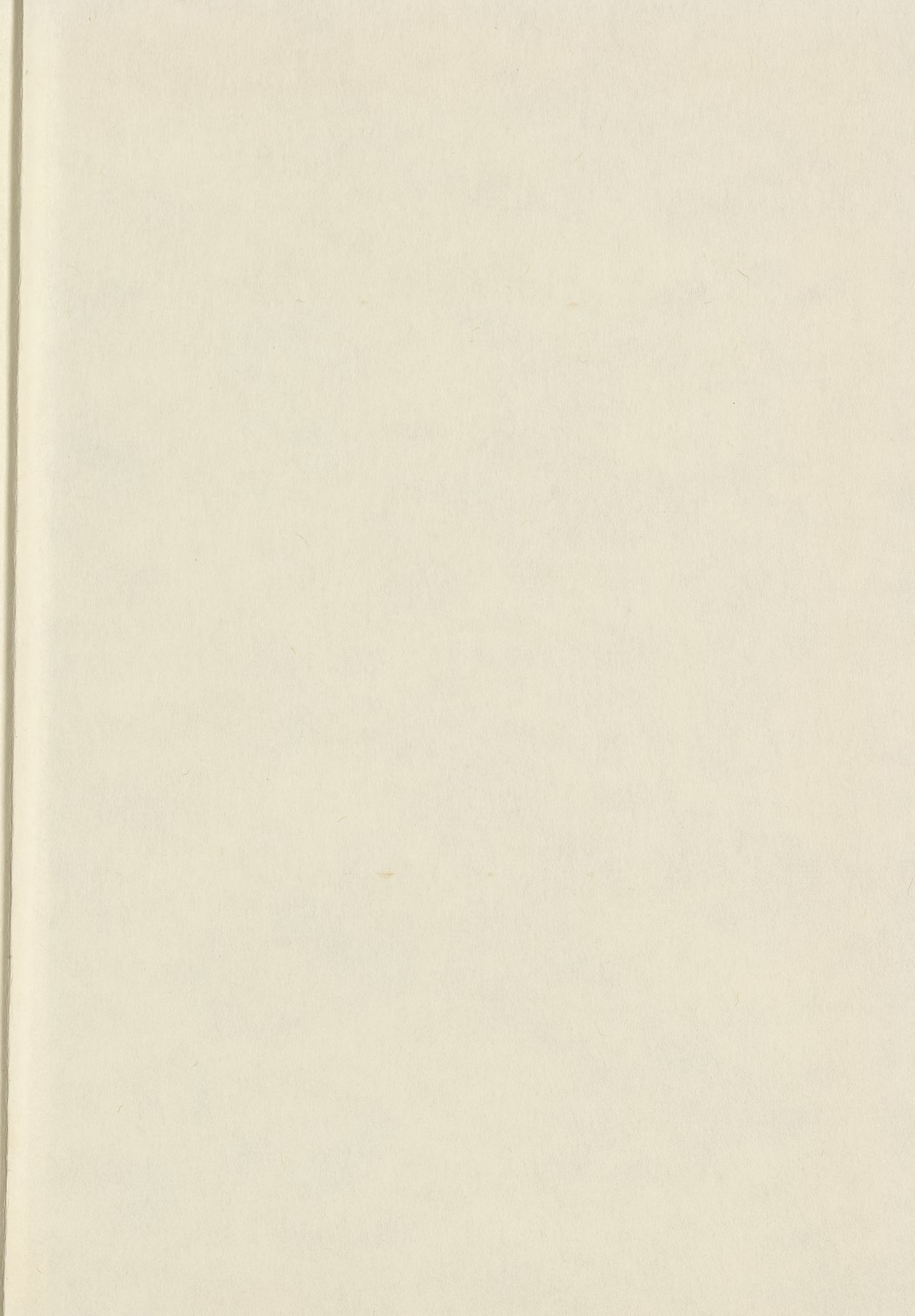
للكاتب الكبير

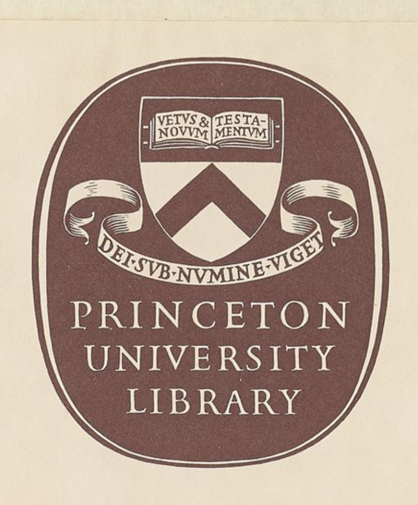
الاستاذ توفيق الحكيم بك



مطابع دار أخبار اليوم










Princeton University Library
32101 075912244